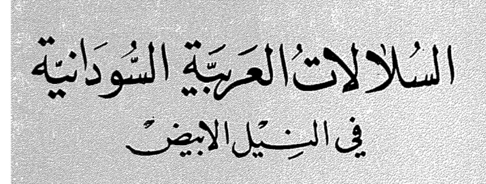
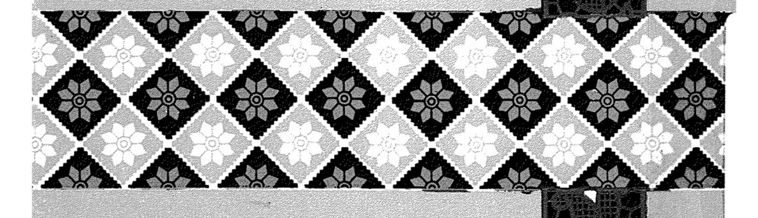


التجاني عامر



دار الفكر
الدار السودانية

السلالات العربية السودانية
في النيل الابيض

إهـــــــداء ٢٠٠٦

الدكتورة / ضياء محمود أبو غازي

القاهرة

التجاني عامر

السلالات العربية السودانية
في النيل الابيض

دار الفكر الدار السودانية

الطبعة الثانية

١٣٩٠ هـ — ١٩٧١ م

الإهداء

أحمد الله أن وفقني لاخراج هذا الكتاب التاريخي الذي اعتزمت منذ أن كان فكرة أن أهديه إلى روح والدي عامر أحمد.وجدي لأمي محمد علي عسيب اللذين أعداني منذ الطفولة إعداداً موجهاً للدراسة التاريخية : الأول بما ورثت عنه من كتب التاريخ العربي ، والثاني بما كان يروي لي من مغامراته ومغامرات حروب الثورة المهدية مما شاهده واشترك فيه محارباً بسيفه ومشيراً برأيه .

فإلى روحيهما أهدي هذا الكتاب اعترافاً بجميلهما والله ولي التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

السودان الذي تبلغ مساحته نحو المليون ميل مربع والذي يعتبر أكبر الأقطار الأفريقية قاطبة من حيث الرقعة الأرضية لا بد أن يحتوي على العديد من القوميات التي نشأت فيه منذ العصر الحجري والقوميات التي هاجرت إليه تباعاً عبر القرون الطويلة الضاربة في القدم .

ولا بد كذلك من أن تكون تلك القوميات مختلفة في أصولها وعناصرها وثقافتها وصلاتها بحضارة السلالات القديمة ولا بد للأرض نفسها أن تكون مختلفة في طبيعتها ومناخها

بالنسبة للصحـــاري والسهول والجبال والغابات والأدغال والمنخفضات والمستنقعات .

ومع أن السودان الشمالي أو بالأصح السودان العربي يحـدد جغرافياً من الناحية الجنوبية بخط العرض الثـاني عشر إلا أن الواقع يوضح بأن العناصر العربيـة في شرق السودان الجنوبي مثل عرب رفاعة وغيرهم من الفونج وسليم والأحامده في النيل الأبيض وكثير من قبائل البـقارة في كردفان ودار فور لم يلتزموا في تسربهم للجنوب طلبـاً للمرعى والماء بأي حدود تقليدية وتقديرية .

والزحف العربي للسودان لم يبـدأ في القرن الثاني عشر الميلادي كما ذكر كثير من المؤرخين الأجانب ولا حتى في القرن السابع الميلادي بغزو عبدالله بن أبي السرح على دنقلا. ولكنه في الحقيقة بدأ عن طريق البحر الأحمر واثيوبيـا من حوالي ألف عام قبل الميلاد المسيحي. ولكنه لم يكن زحف إقامـة وتوالد كما حدث عن طريق مصر عندما غادرتها القبائل العربية بتجمعات كبيرة بعد ما لاقوه من ضغط من دولة المماليك في القطر المصري منذ عام ١١٧٥ ميلادية .

ومهما كان تاريخ الاستقرار العربي في السودان فإن القبائل التي دخلته تمثل غزو الثقافة العربية الاسلامية بكامل قوتهـا نحو قلب أفريقيا لأن تلك القبـائل لم تقف عند حد الهجرة لإيجاد وطن يضمها بل ظلوا يبشرون ويعربون بين قبائـل

النوبة والزنج والبجة وسلالات القوقاز الأخرى بالطرق السلمية والاختلاط التناسلي حتى صار السودان كله قطراً مسلماً عريقاً وقوياً في عروبته واسلامه ما عدا الجزء الجنوبي الذي لم تساعد فيه طبيعة المناخ تلك القبائل العربية لتقتحمه وتلحقه بالجزء الشمالي .

وبالنسبة للعلاقات المصرية السودانية فإن كل القبائل التي دخلت السودان قد بقيت منها أجزاء كبيرة في مصر فهم بهذا أبناء عمومة مؤكدة مع اخوانهم الذين نزحوا للسودان ولعل هذا يشكل من ناحية العصبية وحدها أقوى الروابط بين مصر والسودان حتى الآن وإلى الأبد .

وبالنسبة لما كتب عن السودان من تاريخ فإن القدر الذي ظهر حتى الآن بالعربية والانجليزية لم يستوعب تفاصيل حقيقية مستوفاة عن معظم الأقاليم وأصول السكان وأساليب عيشهم وتاريخ هجرتهم للأقليم بما يروي غليل المتطلعين إلى معرفة ذلك من أبناء هذا الجيل والأجيال القادمة .

ومع أن كل ما كتب من الناحية التاريخية يعتبر — كما ذكرنا — قليلاً جداً في عمومه — فإنه أيضاً يعتبر قاصراً كل القصور عما يجب أن يسجل بسبب كثرة الأقاليم وتعددها والاختلافات الأساسية التي تقتضي دراسات مستفيضة لا بد أن يتوفر لها الزمن وجميع الامكانيات التي تسهل دراستها الوافية الصحيحة .

ولا عبرة إطلاقاً بالمذكرات المدونة والكتب التي ألفهـــا الانجليز إبان حكمهم للسودان لأنهـــا لم ترتبط مع بعضها ولم تترجم للعربية إلا بالنسبة القليلة النادرة وهي بعد ذلك كله مليئة بالأخطاء في الوقائع والأسماء والمسميات والتوقيت لأن كاتبيها أعاجم وقد اعتمدوا على الروايـة الشفوية للأحداث من المصادر القريبة من متناولهم مثل النظار والعمد والمشايخ .

ولهذه الأسباب فقد رأينا أن ننتهج طريقـــاً جديداً أو فريداً وهو محاولة التسجيل التـــاريخي لكل اقليم سوداني متكامل التماسك من النواحي الطبيعية والاجتماعية والتاريخية والسياسية لأن ذلك يتيح لنا فرصة التركيز على حدود اقليمية معينة وقطاعات بعينها من السكان نستطيع أن نستوعبهـــا دراسة واستقصاء ونبرزها لطلاب المعرفة في صورة واضحة المعالم دقيقة التفاصيل حتى إذا ما اكتملت الحلقات التاريخية عن جميع الأقاليم السودانية صارت في مجموعها سجلاً كامـــلاً للسودان بأجمعه ويمكن جمعها فيما بعد في كتاب واحد نستطيع أن نسميه تاريخاً شاملاً للبلاد .

ومن البديهي أن هذه الطريقـــة لا يمكن أن تتيسر لفرد واحد في القيام بهـــا سواء من حيث الزمن أو من حيث الطاقة والامكانيات ولهذا فإني أدعو أساتذة التاريخ بجامعة الخرطوم وكل المهتمين بشؤون تاريخ السودان من المواطنين أن يتعاونوا في وضع خطة كاملة تستهدف توزيع هذا العمل على

بجموعات أو أفراد كل في المناطق التي تتيسر لهم فيها المعلومات الصادقة والمعرفة المحلية التي تؤهل المؤرخ للاتصالات المفيدة والتجوال الاستقصائي إلى أبعد مدى في أعماق التاريخ للاقليم.

ولكي نخطو خطوة عملية ايجابية في هذا المضمار فقد رأيت وأنا صاحب هذه الفكرة أن أتولى زمام المبادءة والمبادرة باخراج هذا الكتاب عن تاريخ النيل الأبيض لأنه الاقليم العربي الملتصق بالحدود مع السودان الجنوبي غير العربي .

واقليم النيل الابيض هو المنطقة التي كانت تعرف منذ بداية الحكم الثنائي (١٨٩٩ ميلادية) بمديرية النيل الابيض التي اندمجت في مديرية النيل الازرق من عام ١٩٣٩ . وصارت تعرف الآن ادارياً بمجلس ريفي كوستي ومجلس ريفي شمال النيل الابيض . وتبدأ المنطقة من خط عرض ١٢ جنوباً إلى خط عرض ١٦ شمالاً وبوصف آخر تبدأ من منتصف المسافة بين الرنك والجبلين تقريباً وتنتهي إلى نقطة جنوب جبل الأولياء مباشرة .

وهذا الاقليم الذي يدار الآن على أساس المجالس الريفية للحكومة المحلية - كان فيما مضى يدار على أساس ادارة الحسانية وادارة البقارة المتحدة وهو النظام الذي يعتمد على القبلية وحدها وقد وضعه البريطانيون على أسس قديمة وجدوها سارية ولكنهم عدلوا فيها بالطريقة التي تجعل النظام الجديد ملائماً لسياستهم ومقبولاً لدى السكان وعملياً من

حيث التنفيذ واقتصادياً من حيث تخفيض النفقات التي يتطلبها الحكم البيروقراطي المباشر الذي بـــدأ بعد الفتح الانجليزي المصري .

وهذا الكتاب الذي أضعه بين أيـــدي القراء كحصيلة للسنوات الطويلة التي عانيت فيها جمع حقائقه ومواده لا أدعي صحة كل واقعة فيه ولكني أدعي بذل الجهد والتمحيص الذي يهدف للوصول الى الحقائق المكتملة . كما ان هنالك ملاحظة هامة على أسماء القبائل الفرعية التي سردناها وهي أنهـا أسماء مأخوذة من تقارير المسؤولين الانجليز الذين كانوا يهتمون بتفاصيل المعلومات عن كل قبيلة وفي رأينا ان تلك الاسمـــاء كانت لمجموعات أو أسر صغيرة داخل كل قبيلة كانت منفردة بمسؤولياتها في الضرائب للحكومة عن طريق شيخ منها وبهذا اعتبرها البريطانيون بطونا قائمة بذاتها في كيان القبيلة . ومع ترجيحنا لهذا التوقع فاننا لم نجد ضرراً في سردها كما هي زيادة في ايراد التفاصيل المكتملة للمهتمين بالسلالات العربية .

ولا يسعنا في ختام هذا التقديم الا ان نذكر بالثناء العاطر من أعانونا على تخطي الصعاب لاخراج هذا السفر التاريخي على اختلاف اشكال تلك الصعاب والوانها . ومن هؤلاء الاستاذ الكبير الشيخ يوسف أسحاق حمد النيل المفتش بالشؤون الدينية والذي صححت على يديه حقيقة تاريخ قبيلة العركيين العتيدة والشيخ ابراهيم هباني الذي راجعت معـه بعض مواد الفصل

الاول من الكتاب لخبرته الواسعة باقليم الحسانية والحسنات إذ كان وكيلاً للنـاظر لاكثر من ربع قرن . والاستاذ الكبير بشير محمد سعيد الذي وضع بين يديّ مكتبة شركة الايام للصحافة بثرائها في كل أبواب المعرفة عن السودان وابني سيف الدين التجاني عامر الذي عاونني طوال فـترة دراسته الجامعية في العطلات وغير العطلات بجد واجتهاد والابن سعيد الناير الذي قـام بطباعة الكتاب على الآلة الكاتبة وراجع معي نصوصه .

وأخيراً ها أنا أقـدم هذا الجهد المضني مطبوعاً للمهتمين بمعرفة بلادهم في ماضيها ولطلاب المعرفة والثقافة التاريخية من المواطنين السودانيين عرباً وغـير عرب ومن بني العمومة في جميع أرجاء الوطن العربي ومن قراء اللغة العربية حيثما كانوا . متمنياً ان يجدوا فيه متعة ذهنية وان يلقي لهم ضوءاً على جزء هام من افريقيا المظلمة ثقافياً وتاريخياً . والله هو الموفق .

الفصل الأول

إقليم قبائل الكواهلة

ابتداء من الجزء الشمالي الذي يقع الآن تحت إدارة مجلس ريفي شمال النيل الأبيض سنتناول بالبحث القبائل الأصيلة التي سكنت هذا الإقليم عقب دخول العرب للسودان مباشرة والتي تألفت منها الحكومات الأهلية السابقة على أساس الشياخات القبلية ما كان منها خاضعاً للسلطنة الزرقاء وحكومة سنار وما لم يكن خاضعاً بطريق مباشر من أمثال العرب الرحل الذين لا يقر لهم قرار في مكان معلوم ولكنهم لا يتجاوزون في ترحالهم حدود الإقليم التقليدية إلا في أعوام المحل والمجاعات حيث تضطرهم ضرورات الجوع للنزوح أو الهجرة المؤقتة الى أقاليم أخرى وسع الله لها في الرزق وأهم

القبائل الأصيلة في هذا الأقليم هم الكواهلة الذين يشكلون ثلاثة أقسام فرعية كبيرة من الكواهلة[1] والحسانية والحسنات.

ويضاف الى هؤلاء قبيلة (الأحامدة) التي تنتمي حقيقة لأولاد كاهل من حيث النسب ولكنهم نزحوا وسكنوا الإقليم الجنوبي على الحدود بين مركزي كوستي وتقلي وتغير أسلوب معيشتهم الى تربية الأبقار فصاروا ضمن قبائل البقارة وتغيرت تبعاً لذلك طباعهم الموروثة الى طباع فصائل البقـــارة التي اكتسبوها بالممارسة وأحكام البيئة جيلاً عن جيل .

والفرع الذي يسمى (كواهلة) من أصل أولاد كاهل يعتبر قلة اذ لهم ثلاث عموديات في المنطقة اثنان منها بالقرب من جبل الأولياء والعمودية الثالثة في منطقة الشقيق شمال غرب الدويم .. أما الحسانية والحسنات فهـــما الفرعان الغالبان المسيطران على الإقلـــيم عبر التاريخ القبلي هناك ويتضح من الخريطة الملحقة بالكتاب أنهما تسكنان كل مركز القطينة والمناطق النيلية لمركزي الدويم والكوة .

وبالرغم من أن نظام الادارة الأهلية ليس بقائم الآن في هذا الإقليم بالذات بعد أن ألغته حكومة ثورة مايو مع بقية الأقاليم التي انتهى فيها عهد تلك الادارة — بالرغم من ذلك فاننا حين نتحدث عن التاريخ وتاريخ القبائل بالذات لا بد لنا من ذكر الادارة الأهلية في مختلف أشكالها عبر التاريخ الطويل.

(١) الكواهلة هنا فرع من الكواهلة الأصل .

وقبائل الكواهلة الفرعية الثلاث التي ذكرناها كانت قبل إنشاء خزان جبل الأولياء وقيام مشاريع المعايش الزراعية التي أنشئت ضمن إطار تعويضات أضرار الخزان كانت قبائل مترحلة تعيش على شواطىء النيل الأبيض بمواشيها طوال الصيف والشتاء ، فاذا ما جاء الخريف نزحوا الى اتجاه الحدود مع كردفان للمرعى ثم يعودون بعد جفاف الأمطار الى النيل حيث يزرعون الأراضي الواسعة التي ينحسر عنها النيل الأبيض ويحصدون مقادير ضخمة من عيش الصفراء الشتوي المشهور .

أنسابهم :

تنتسب قبيلة الكواهلة الى سيدنا الزبير بن العوام وهم بذلك ينسبون الى قبيلة بني أسد في العرب. والى نفس السلالة ينتسب البشاريون والامرار من شرق السودان والذين يعرفون الآن بأنهم من قبائل البجة. وقد أيد ذلك المؤرخ الرحالة (ملقجان) بعدة روايات كما ذكر أن لفظة (آب) التي تشير الى الانتساب القبلي مثل عمراب وعبدلاب إنما أخذت من لهجات البجة ولغتهم المحلية واستعملها عرب شمال ووسط السودان بتوسع . وبعض المؤرخين ينسب قبيلة العبابدة كأبناء عمومة للكواهلة.

وتحقيقاً لصلة الدم بين البجة والكواهلة فقد ذكر كثير من علماء الأجناس البشرية أن التشابه في الدم وفي التقاطيع متوفر للغاية بينهما كما أن الكواهلة أنفسهم يعترفون بتلك القربى برغم بعد الدار بينهما واختلاف البيئة واللغة المحلية .

ويذكر التاريخ القديم أن الجد (كاهل) الذي ينتسب اليه الكواهلة والحسانية والحسنات كان قد تزوج إحدى بنات مملكة سوبا فولد منهـا سلالته التي أنجبت كل تلك القبائل المنتسبة اليه ليس في النيل الأبيض فقط بل وفي كردفان شمالها وجنوبها وفي الجزيرة وغيرها .

ومن حيث التاريخ لم يثبت وجود أي دليل مادي يشير الى وجود هذه القبيلة قبل منتصف القرن السادس عشر الذي ظهرت فيه مملكة سنار ويقول رواة الكواهلة عن تاريخهم أنه كانت لأسلافهم أحداث هامـة وأساطير مسجلة في أوراق ولكنها أتلفت وفقدت جميعهـا في مرحلة المهدية حين تزعزع استقرار القبيلة وقتل معظم رجالاتها في الحروب والكوارث. ولذلك فان كل ما سجل من أحداث التاريخ الآن إنما نقل عن أفواه الرواة مما تناقله الناس ابناً عن أب عن جد .

والكواهلة مثل كثيرين من غيرهم من قبائل العرب الأخرى قـد نزح أجدادهم للسودان عن طريق مصر وعلى الأخص في الفترة التي تولى فيهـا المماليك السيطرة على مصر وأظهروا كراهيتهم للعرب وشجعوا هجرتهم الجماعية والفردية للسودان وقد وجدت القبائل العربية في تلك الهجرة فوائد معيشية جمة خصوصاً فيما يتعلق بوفرة المرعى لماشيتهم بالاضافة لأن السودان كان أرضاً بكراً لم تتعرض من قبل للغزو الأجنبي وكان أهله على جانب من التخلف الحضاري جعل العرب يتوزعون على بقاعه ويسيطرون عليه بحضارتهم الاسلامية وثقافتهم العربية

التي ضاعفتها الفتوحـــات والانتصارات في كل بلاد الشرق الأوسط وأجزاء من الشرق الأقصى وشمال افريقيا وأسبانيا وغيرهـــا .

وقـــد بدأت هجرة العرب الأولى بغزو دنقلا عام ٦٥١ ميلادية ، حين أقيمت معاهدة بـــين مصر الاسلامية ودنقلا المسيحية ولم يحدث مزيـــد من الهجرة بالأعداد التي تستحق الذكر حتى حـــكم المماليك مصر فتدفقت القبائل العربية على السودان بعـد عام ١١٧٥ بهجرات جماعية كبيرة . ومن هذه الهجرات وصل الكواهلة مثل غيرهم من القبائل فانتجع فريق منهم مناطق كردفانوفريق آخر استقر بالنيل الأبيض وفريق ثالث انتجع منطقة جنوب الجزيرة وشمال سنار .

والحسانية بالذات كاحدى بطون الكواهلة قد سبق لهم أن سكنوا أول الأمر في منطقة شندي بالشمالية بمكان يسميه أجدادهم جبل (جلف) حيث لا يزال فريق من الحسانيـــة يسكنون هناك ، ومكانهم يسمى الآن جبال الحسانية ولهم عمودية كبيرة .

وهناك قصـــة تروى عن سكن الكواهلة بالنيل الأبيض وهي أن (العرواب) من بطون كاهل كانوا أول من أقام بالنيل الأبيض . والقصة هي أن الملك غانم زعيم الجمليين كان قد قتل كل القبيلة الفرعية الـــتي تسمى (الكالاب) وبقي منهم طفلواحد اسمه (عروة) ووالدته فنفـــاهما الملك الى النيل الأبيض ومنحهما الأرض الزراعية حول جبل الأولياء

وجبل بريه . ولما وصلت الى هناك قبيلة (الحسنات) من بطون الكواهلة فيما بعد وجدوا أن الذين تناسلوا من أبناء ذلك الطفل وهم (العرواب) قد سبقوهم على تلك الدار فتحالفوا معاً على الاستيلاء على أبعاد أخرى جنوب الدار وطردوا الشلك الذين كانوا يقيمون في بقاع منها .

ثم نشب بين الحسنات والعرواب نزاع على الأرض والزراعة والمرعى في القرن السادس عشر وتقاضوا عند سلطنة سنار فقضى الأمر للحسنات بالأرض قرب جبل بريه وأم حجر كما صدر أمر للعرواب بالعودة للسكن في الحدود مع أبناء عمومتهم المحمدية حول جبل الأولياء .

وكان للحسنات زعامتان إحداهما قبلية يتولاها أولاد الفكي مضوي ومنهم الشيخ مقبول والزعامة الثانية دينية يتولاها الشيخ الأغبش وهو أخو مقبول .

وفيما بعد نزح الحسانية من دارهم في شندي الى النيل الأبيض فوجدوا الجوار الذي أرادوا أن يقيموا فيه من الأراضي بقرب بني عمومتهم الحسنات قد احتله قبلهم قطاع من قبيلة المسلمية .. ولأن الشلك[1] لم يجلوا من المنطقة ولا زالوا يناوشون العرب فقد تحالف الحسانية مع المسلمية على الشلك ولكن بشرط أن يدفع الحسانية ضريبة الأرض التي كانت تسمى (حق الشراية) وانتصروا على الشلك ولكن مع ذلك فقد وقع بينهما فيما بعد

(١) قبيلة كبيرة من الاصل الزنجي يقيمون الآن جنوب الاقليم العربي مباشرة .

نزاع أدى الى حرب قادها من الحسانية الشيخ كيوات جـــد الناظر السابق ادريس هباني وقادها من المسلمية زعيمهم المسمى قسم الله ود دارا وكسب الحسانية المعركة واحتلوا الأراضي من « وادي العفو » الى الترعة الخضراء .

وبعد اندحار المسلمية تم التحالف بين الحسانية والحسنات على مواجهة أي غزو ضد دارهم المشتركة من القبائل الأخرى أما بنو عمهم الكواهلة في منطقة جبل الأولياء وهم المحمديـــة والعرواب فقد تعرضوا للكثير من غارات قبيلة الجموعية في الشمال وغيرهم وبذلك تضاءل عددهم ولم تتكون لهم قوميات كبيرة مثل ما حدث للحسانية والحسنات .

ومن الحروب القبلية المشهورة التي خاضها الحسانية والحسنات متحالفين في النيـــل الأبيض نكتفي بتسجيل وقائع معينة بطريقة مختصرة لأننـــا نعتقد أن التفاصيل المطولة في وصف تلك الحروب لا تخلو من تزيد واضافات يدعو لها حب الامجاد والمباهاة عند رواة الأخبار ويكفي أن نثبت في هذا السفر التاريخي الوقائع الصحيحة أو بعضاً منها مع نتائجها كما حدثت أثنـــاء السلطنة الزرقاء أو مملكة سنار أو أثناء الحكم التركي المصري للسودان .

مع الشكرية :

وأول حرب نشبت بعد معركة قبيلة المسلمية كانت غارة قبيلة الشكرية الذين يبدو أن المحل في مناطق النيل الأزرق قد

قادم مضطرين الى التوغل في أراضي النيـــل الأبيض بقصد المرعى لجمالهم ولكنهم أتلفوا مزارع الحسانية والحسنات في مكان يدعى وادي الرقيّق (بتشديد اليـــاء تصغيراً) شرق النيل الأبيض واستطاع (كيوات) قائد الحسانية أن يقتل فارساً يسمى فتيحات كان عقيـــد الخيل للشكرية فانهزموا وانتصر حلف الحسانية والحسنات .

مع الكنجارا :

وغزت سرية من الكنجارا وهم سادة سابقين للفور دار الحسانية بزعامة الملك شاكر وهزموا الحسانية والحسنات حتى منطقة أبو حجر فاستعانوا بالجموعية الذين ساعدوهم حتى تغلبوا على الكنجارا وأبادوهم واستولوا على كل متاعهم وقسموه بينهم فأخذ الحسانية السلاح وأخذ الحسنات الجمال وأخذ الجموعية الخيل وكانت الغنيمة كبيرة جداً .

مع الجموعية :

وبرغم مساعدة الجموعية للحسانية والحسنات فإن أحد الحسنات قد قتل ابناً للملك الجموعية في نزاع على منهل مـــاء وأراد الحسانيـــة التدخل لحسم الشر بالصلح بين الحسنات والجموعية ولكن الأمر انتهى بتحكيم السيف فوقعت الحرب وخاضها الحسانية مع بني عمهم الحسنات ضد الجموعية وكانت الغلبة طوال المعركة للجموعية حتى حانت فرصة لفارس حساني اسمـــه الفكي عـــلي أبو حسن فقتل زعيم الجموعية المسمى

(ودقناطير)وكان في ذلك هزيمة الجموعية الذين اضطرب صفهم واهتزت معنوياتهم بقتل قائدهم .

مع الكبابيش

وهذه من المواقع الغريبة في مسبباتها لأنها نشبت من أجل جراب به كيلة عيش نهبه أحد الكبابيش من غلام حساني كان يسير منفرداً في الوادي وأخذ الحسانية هذا الحادث الى مستوى المساس بكرامة الدار والقبيلة فنشبت بينهم وبين الكبابيش حرب انتصر فيها الحسانية والحسنات وأجلوا الكبابيش حتى منطقة أم سدر التي لا تزال حتى الآن من ضمن دار الكبابيش.

مع الكرتان والماجدية

وفي الترعة الخضراء اصطدم الحسانية والحسنات مع قبيلتي الكرتان والماجدية وكانتا بقيادة امرأة اسمها (رابحة) [1] ومن الغريب أن المرأة وجيشها قد انتصروا على الحسانية والحسنات وهزموهم . ويقول الحسانية أن الكرتان والماجـــدية وجدوا مساعدة حربية بالرجال والعتاد من فرع قبيلة الأحامدة كانوا يقيمون بقوز الصوفي .

مع الطوال

والطوال قبيلة تسكن شرق الحسانية شمال غرب معتوق

---

(١) هذه رواية أثبتها مستر ريد حاكم ومؤرخ بريطاني ولكن الروايات الوطنية بين الحسانية تنفيها .

وتنتمي أصلا للكبابيش بشمال كردفان في رواية . وفي رواية أخرى ينتمون لجهينة. وقد حدث أن قتلوا شاباً من الحسنات ولكن قبيلته لم تثأر له ولم تطالب بديته فصار الطوال يتهكون على الحسنات ويسخرون منهم حتى سموهم أولاد أم ربيّع (بالتصغير) ويقصدون بذلك أن المرأة منهم تلبس ربع ثوب لا يسترها .

واستشاط الحسانية والحسنات من الاستفزاز فغزوا الطوال وهزموهم في موقعة حاسمة في قرية (شاشا) بالقرب من منطقة نعيمة الحالية .

ويبدو مما ذكرنا أن حلف الحسانية والحسنات كان متيناً وقوياً واجهوا به كل عدوان وانتصروا به في جميع المعارك تقريباً وقد قيل أن كيوات قوي الفكر والنفوذ وبسببه لم يتزعزع الحلف كما قيل أنه كان على علاقة حسنة بملك سنار ويدين له بالطاعة ويرسل اليه جزءاً من الغنائم التي يحصل عليها بالانتصار على القبائل الأخرى .

وذهب كيوات الى سنار وقابل الملك بهدايا عظيمة واكتسب وده وتأييده بقوله (أنت ملكنا وليك المال ولينا الدار) .

القيادات القبلية للكواهلة

القيادات التي ذكرنا بعضاً منها مع ذكر الوقائع التي حدثت إبان مملكة سنار لم تكن تتصف بالصورة الزعامية

المتفق عليها تماماً بين فروع أولاد كاهـــل الثلاث وكثيراً ما حدث أن يكون الحسانية زعيم والحسنات زعيم والكواهلة زعيم وتختلف أساليب الادارة ولا تجمعهم تحت قيادة واحدة إلا ضرورات الغزو الذي يتعرضون له من قبائل شتى كما ذكرنا. وسنورد هنا ذكراً ملخصاً لقيادات الكواهلة عبر تاريخهم في النيل الأبيض .

١ – شلعي

لقد حدث قبيل الفتح التركي المصري الأول عام ١٨٢١ م أن تولى الزعامة العامة رجـل قوي الشخصية اسمـــه (شلعى) ويكنى باسم (أبو عافية) وكان شلعى يعتبر أول زعيم للقبائل الثلاث من أولاد كاهل منذ ظهرت سمات القيادة والرئاسة في تصرفاته وادارتـــه وأحاطها بمظاهر لها دلالات الحكم مثل قيـــام حرس شخصي وتعيين قاضي اسلامي لفض النزاعات القضائية في المعاملات الشرعية والمدنية كما وأنه تولى السلطات على قومه بكل حقوقهـــا من سجن وإعدام ونفي وتجريد وكل ما يخوله له حق القيادة المتفق عليها بمـــا فيها اعلان الحرب .

٢ – بشارة ود شلعي :

وبعد وفاة شلعى تولى زعامة أولاد كاهل ابنه بشارة ود شلعي ومع أنه لم يبلغ شأو أبيه من المقدرة والحنكة والكفاءة

فإنه قد اختلف مع الحكام الاتراك فأودعوه السجن الى أن مات [1] .

ومنذ نهاية زعامة بشارة ود شلعي انحلت الادارة الموحدة بين القبائل الثلاثة وصارت الزعامة نهباً للمتسلط الذي يستطيع أن ينتزعها فهي حيناً هنا وحيناً آخر هناك بين فروع الكواهلة .

٣ - الشيخ ابو الحسن :

وقد تولاها لفترة قصيرة أبو الحسن وهو من (العرواب) الحسنات ولفقدان التماسك الجماعي كما ذكرنا سقطت زعامته وانفرط عقد الاتفاق العام لفترة ثم عاد التماسك مرة أخرى ولكنه لم يستمر .

٤ - مسلم ود مقبول :

وتولى الزعامة مسلم ود مقبول من الحسانية المغاوير وقضى طوال فترة حكمه في محاولة اعادة المياه الى مجاريها ولكن التماسك لم يبلغ الدرجة التي تصل بها الزعامة الى ماضي مكانتها وسلطتها وقد عملت الادارة التركية على تشجيع التفكك بينهم .

---

(١) كان الحكم التركي لا يشجع الأحلاف القبلية ويعتبرها تكتلات قد تصير مناوئة ولهذا سجنوا بشارة ود شلعي لينفرط عقد الحلف بين فروع الكواهلة .

٥ – أحمد ود جار النبي :

ثم تولى قيادة القبيلة أحد أبناء (العرواب) الكواهلة من منطقة جبل الأولياء وهو أحمد ود جار النبي وسار بهـا في مهب الرياح القبلية لفترة بلغت قرب نهاية الحكم التركي المصري ويبدو أن اهتزاز قيادة الكواهلة كما ذكرنا ، كان لحد كبير بسبب أساليب الحكم التركي الذي كان له أصبع في استقرار الرئاسة أو اهتزازها بسبب الضرائب أحياناً وبسبب المزاج الشخصي من حكام الأقاليم أحياناً أخرى .

٦ – نمر ود بشارة :

وقبيل المهدية تولى رئاسة القبيلة نمر ود بشارة ولكنه لم يعمر طويلاً إذ مات قبل المهدية بقليل .

٧ – عبد القادر ود نمر :

وتولى الرئاسة عبد القادر ود نمر وظهرت المهدية في أبا ثم الأبيض وكان أخوه ناصر ود نمر يعرف الإمـام المهدي من الجزيرة أبا قبل اعلان الدعوة فهاجر إليه في الأبيض مع كثير من أبناء الحسانية وكان الإمام المهدي يظن أن ناصراً هو الزعيم الرسمي للقبيلة ولكن ناصراً كان صادقاً ومخلصاً فقال للمهدي ان الحق في الرئاسة والزعامة لأخيه عبد القادر الذي يتولاها الآن واعتذر عن عرض المهدي له بأن يكون هو رئيساً للقبيلة بعد عزل أخيه .

وعند هجرة المهدي من الرهد لحصار الخرطوم اتبعه عبد القادر وكل الكواهلة بقبائلها ولكن عبد القادر ود نمر مات بالجدري أثناء حصار الخرطوم وقبل الفتح بأيام .

٨ – محمد ود نمر :

وبعد وفاة عبد القادر اختير أخوه محمد رئيساً للقبيلة ولكن حكم المهدية كان قد بدل كثيراً من أسلوب الادارة القبلية لأن التطور اتجه للناحية الإسلامية وجاء فرض الجهاد على كل الناس فانفرط عقد القبيلة من حيث الاستقرار والمعايشة في اقليم واحد . وسافر محمد ود نمر مع جيش حمدان أبو عنجة مجاهداً في تخوم الحبشة ومات في معركة القلابات جندياً في الصف .

٩ – علي ود مريمي :

ومع انفراط عقد القبائل أثناء المهدية عيّن الحسانية «علي ود مريمي» ابن أخي نمر ود بشارة رئيساً على القبيلة وكان شجاعاً ومجازفاً أتى بتصرفات أزعجت الخليفة عبد الله فعزله عن الرئاسة بعد فترة قصيرة وتخلى هو عنها لعدم جدواها .

١٠ – ناصر ود نمر :

وعادت الرئاسة الى ناصر ود نمر الذي ذكرنا أنه هاجر للمهدي بالأبيض وعرض عليه الرئاسة في عام ١٨٨٢م–انتخبته

قبائل الكواهلة للرئاسة الموحدة ولكن الجهاد الاجباري في المهدية وعلى عهد الخليفة بالأخص اضطره أن يقوم بسرية عسكرية للحدود الحبشية أظهر فيها شجاعة واضحة ولكنه كان يكره الخليفة عبد الله والخليفة يشعر بذلك فسجنه في أم درمان .

ولأهمية ناصر في قبيلته تجمعت القبيلة للتشفع لدى الخليفة الذي كان يحب عبدالله ود الكريل زعيم المحمدية جنوب جبل أولياء فأطلق سراحه واستمر ناصر ود نمر زعيماً رغم عدم رغبة الخليفة في ذلك وكراهته هو للمهدية .

وقبل موقعة كرري وسقوط المهدية بشهور قليلة حدث أن كان ناصر في منزل إحدى زوجاته بقرية بعيدة ومعه ابن عمه علي ود مريمي الذي عزله الخليفة إذ أغارت سرية من الهوارير كان لها ثأر عند الحسانية فقتلوهما على غرة ونهبوا خيولهما ومتاعهما . ويقول الحسانية انهم قد فقدوا بفقدهما فارسين للقبيلة من أشجع رجالاتها .

والمعتقد أن الحسانية لم يجدوا فرصة الثأر للفارسين لأن الحكم الثنائي تسلم السلطة بعد شهور قليلة ووضع القوانين التي تمنع الغارات القبلية .

وقد قيل عن سبب كراهية الخليفة عبدالله لناصر ود نمر أنه كان قوياً وشجاعاً ومحبوباً وكان الوحيد الذي انضوت القبائل الثلاث تحت لوائه عن رغبة منذ أن مات (شلعى) وكان الخليفة عبد الله لا يريد اتحاد القبائل كسياسة رسمها لمراقبة

عدم تكتلهم خوفاً من الانتفاضات المضادة للمهدية وقد حذا بذلك حذو الترك في سياستهم العامة .

ويقول التاريخ أن قبائل الكواهلة الثلاث قد أضيرت جداً في رجالها من حروب المهدية ومن الأمراض والمجاعات . ويدعي البريطانيون بأن الحسانية والحسنات لم يتبعوا المهدية عن عقيدة ولكنها كانت تبعية برغبة في الغنائم ورهبة من الانكار برسالتها وما يستتبع ذلك من عواقب وخيمة .

وذكر مستر (ريد) أحد المعروفين من مديري النيل الابيض في الحكم الثنائي أن الفرع الوحيد من كل الكواهلة الذي آمن بالمهدية عن عقيدة هو فرع (الصلاحية) من الحسنات ومن بقي من الكواهلة حسانية وحسنات لم يؤمنوا بالمهدية عن عقيدة واخلاص وانما تظاهروا تقية وطلباً للمغانم .

وفي رأينا أن هذا غير صحيح وأن مستر (ريد) كان ممثل الحكم الثنائي في النيل الابيض ومن البديهي أن يجد من المعلومات ما يرضيه من كراهة الناس للمهدية رهبة منه ولكن الحقيقة أن الكواهلة كان لهم دور كبير في المهدية وكانوا أنصاراً بصدق وحق وتولوا فيها مناصب خطيرة .

١١ — ادريس آدم هباني :

واحتل الحكم الثنائي السوداني بعد يوم ٣ سبتمبر ١٨٩٨ م وغيرت الحكومة الجديدة زعامات القبائل الى شكل آخر لا يختلف كثيراً عن الشكل المألوف للناس ولكنها جعلته على

درجات متفاوتة . ولذلك فقد عينت الحكومة ادريس آدم هباني في بادىء الامر عمدة للحسانية والحسنات تحت التجربة ولم يعين ناظراً لعموم القبيلة .

وقد حدثني المرحوم الشيخ النور الشيخ برير في شبشه عام ١٩٤١ بأن مدير الدويم الاول كان قد عرض عليه أن يكون ناظراً لقبائل الكواهلة باسم الحكومة لان معظم رجالات الرئاسة قد ماتوا في عهد المهدية وان الانجليز يثقون فيه ورد عليه الشيخ النور وكان ذكياً لبقاً بأنه ينتمي لأصل من الجعليين وهم يعتبرون أغراباً والكواهلة لا يقبلون في رئاستهم من لم يكن منهم أصلا ثم رشح له العمدة الجديد ادريس آدم هباني لانه معروف بالفكر والذكاء وسعة الصدر واستجابت الحكومة لنصيحة الشيخ النور وعينت ادريس ناظراً عاماً للحسانية والحسنات والكواهلة .

وفي عهده وعهد الحكم العصري الجديد أخذت النظارة شكلها الحضاري وسلطاتها الجديدة المحدودة ورئاستها على عموديات الاقليم كله حتى المناطق التي يسكنها غير الكواهلة من اقليم النيل الابيض .

ومما يروى عن ذكاء الناظر ادريس هباني ودهائه ان مستر (كوربابن) مدير النيل الابيض إبان الحرب العظمى الاولى كان قد استدعاه وطلب منه تعيين عدد من أبناء الحسانية ليدربوا جنوداً ويرسلوا لميدان الحرب مساعدة من القبيلة لبريطانيا العظمى ضد عدوها في معركة الشرق الاوسط .

ووافق الشيخ ادريس على ان يرسل كل رجال القبيلة لا يبقى منهم رجل واحد ثم قال للمدير عفواً وبطريقة ماكرة .. « ولكن عندي ملحوظة هامة وهي ان الحسانية معروفون بالغدر وعدم الامانة والولاء وإذا كانت بيدهم أسلحة فلا ضمان أن يستعملوها ضد العدو وحده وقد يرجعون بها إلى هنا ويقتلوننا جميعاً » وخاف المدير مغبة ذلك واقتنع بكلام الشيخ ادريس الذي خرج يقول للناس المهدية قتلت نصف الحسانية والانجليز يريدون قتل النصف الباقي لأكون أنا ناظراً على النساء فقط[1] .

وتوفي ادريس آدم هباني عام ١٩٢٧ رحمه الله .

١٢ – عبد القادر ادريس هباني :

وتولى النظارة بعده ابنه عبد القادر ادريس هباني وكان الحكم الثنائي قد تدرج في التطور وتدرجت معه الادارة الأهلية . وفي عهده توحدت السلطة الادارية كلها بصورة أوسع في يد ناظر واحد لكل اقليم شمال النيل الأبيض وصارت جميع العموديات تخضع لرئاسته ابتداء من شمال الشوال بالشرق والغرب حتى جنوب جبل الاولياء ومنح سلطات ادارية أوسع من أبيه لانه تعين مع بداية قانون

---

(١) أرسل الانجليز هنا جنوداً مسلمين حاربوا الأتراك المتحالفين مع ألمانيا في المعارك التي دارت في الشرق الأوسط ليثبتوا بذلك بطلان الخلافة الاسلامية عن تركيا بالنسبة للسودان .

الادارة الاهلية الجديد .

وفي عهده أيضاً تم تشييد خزان جبل الاولياء وأنشئت المشاريع الزراعيـــة من عام ١٩٣٩ على حساب تعويضات خسائر الخزان في الاراضي الزراعية والجزائر التي كان يعيش عليها معظم الحسانية والحسنات والكواهلة قبل الخزان .

وكل مشاريع المعايش الزراعية في النيل الابيض قـــد خططت لتروى بالطلمبات والمكنات الرافعة ما عدا مشروع عبد الماجد الذي أقيمت رئاسته في (أبو قوته) فقد شقت له ترعة ضخمة من القنال الرئيسي من (أبو عشر) ، ومعظم مزارعي هذا المشروع من فروع الحسنات وسيأتي الحديث عن المشاريع الزراعية منفصلاً .

وكان الناظر عبد القادر ادريس على نقيض والده في الذكاء والدهاء بالرغم من أن عهد رئاسته كان قمة الازدهار والتطور والتقدم الزراعي والتجاري والثقافي والاداري ولكن أسرته كانت غنية بالرجال الاذكياء والاقوياء والذين نالوا حظاً من التعليم وقامت على أكتافهم ادارة الحسانية (باسمها الموحـــد الجديد) الذي وضعه الانجليز بعد عام ١٩٢٧ .

وقد اعتزل عبد القادر ادريس هباني ممارســـة النظارة والادارةقبل وفاته بسبب الشيخوخةوالعجز عن أدائها وتولاها بعده ابنه الاكبر .

١٣ - ادريس عبدالقادر هباني

وبحكم الوراثة التي حرص الانجليز على اتباعها بعقليتهم الملكية عبر تاريخهم الطويل - عينوا ادريس عبدالقادر هباني رئيساً لادارة الحسانية وناظراً لعموم الاقليم مع أن تجمع الكواهلة المتحد لم يلتزم بالرئاسة في مكان واحد في كثير من الاحيان فقد تولاها الحسانية وتولاها الحسنات وتولاها الكواهلة العرواب والحمدية وغيرهم حسب الصلاحيات المتوفرة فيهم .

وجاء عهد ادريس عبدالقادر منذ أن تولى بالنيابة عن أبيه وهو حي الى أن تولى بالاصالة بعد وفاة أبيه - جاء عهده في مراحل تطور الاقليم الاقتصادي على نطاق واسع وتطور الادارة الأهلية في نسقها وأسلوبها العصري الذي قامت به ميزانيات وحرس اداري ومحاكم قضائية وسلطات منصوص عليها الى غير ذلك من مقتضيات التقدم بما في ذلك مكتب ادارة أهلية منتظم الجوانب .

وفي عهده ظهرت أهمية الأقليات القبلية الاخرى التي وضعت تحت ادارة الحسانية وارتفعت أصواتهم بالاحتجاج على ذلك والشكاوى للحكومة مطالبين باستقلالهم .

والواقع أن تذمر أهالي القطينة من الدناقلة والجعليين وأهالي الدويم من الجعافرة والعبابدة والجعليين وغيرهم قد بدأ منذ رئاسة والده عبد القادر ادريس أو بالتحديد منذ أن بدأ عمل خزان جبل الأولياء ولكنه ازداد واستمر كثيراً ضد

الناظر الجديد ادريس عبدالقادر . وقد يرد ذكر آخر على وجه آخر لهذا الموضوع في مكان آخر .

وامتدت نظارة ادريس بالنيابة والاصالة لما يزيد عن ربع قرن من الزمان بدأت من مستهل الاربعينيات وانتهت بوفاته عام ١٩٦٧ وبالرغم من ان المنافسين من أسرته كانوا أقوى وأذكى إلا أنه كان طيب المعشر ومحبوباً من عامة جماهير قبائل الكواهلة .

١٨ – نزاع رهيب

وعندما توفي الناظر ادريس هباني قامت مديرية النيل الأزرق بتنفيذ الاجراءات العادية القانونية وهي اعتماد ابنه الأكبر الذي لا يعترض عليه مجموع عمد ومشايخ الاقليم ليكون ناظراً خلفاً لأبيه ورشحت مديرية النيل الازرق التي يتبعها ادارياً اقليم النيل الابيض ـ رشحت الشيخ عمر بن ادريس عبد القادر ناظراً لشمال النيل الابيض وصدق وزير الداخلية (حسن عوض‌الله) على الترشيح وقبل أن يمارس الناظر الجديد سلطته حدث ما لم يكن في الحسبان إذ أوقف وزير الحكومة المحلية (محمد داود الخليفة) ذلك التعيين وبرز من قبيلة الحسانية من هو أكبر سناً ومقاماً من الناظر الجديد ـ برز مرشحاً نفسه للنظارة يسانده عدد كبير من العمد والمشايخ من الحسانية والحسنات والكواهلة وتسانده قوة الأنصار التابعة للامام الهادي .

لعنة الحزبية على القبيلة :

والناظر الذي تعين بأمر وزير الداخلية وبالطريقة القانونية المتبعة هو عمر ادريس عبدالقادر هبـاني كان من أنصار حزب الصادق المهدي وركائزه في النيل الابيض .

أما المرشح الجديد فهو الشيخ يوسف ادريس هباني وكيل الناظر منذ وفاة أبيه عام ١٩٢٧ على منطقـة الدويم وهو بحسب النسب يعتبر جد الناظر الجديد المنافس باعتباره العم لأبيه الناظر السابق . والشيخ يوسف من ذوي المران والدهاء والذكاء ويعتبره الناس في هذا المضمار الوريث الحقيقي لأبيـه ادريس آدم هباني وله خبرة ادارية مرموقـة كما أنه متصل الأواصر بالسياسة مع حزب الأمة منذ نشأتـه ويعتبر من العناصر التي حولت جميع الحسانيـة والحسنات ودوائرهم الانتخابية في عهد الاحزاب الى حزب الأمة بنفوذه الخاص .

وقد تقلد يوسف هباني عضوية مجلس الشيوخ في البرلمـان أكثر من مرة وكان من أعضاء القمة في لجان حزب الأمة العليا منذ أيام السيد عبدالرحمن المهدي كما كان طوال عهود الاحزاب من أكبر وأبرز المستشارين في سياسة حزب الأمة خصوصاً ما يتصل منها بالعلاقة مع القبائل والادارة الاهلية في كل السودان.

وعندما انشق حزب الامة الى جناحين كان يوسف هباني على القمة من جناح الإمام الهادي المهدي . وبذلك اختلفت به وبالناظر الجديد المنتمي للصادق المهدي السبل واشتدت بينهما

الخصومة وانقسم الناس حولها في التأييد وبلغت الخصومة في بعض الاحيان مبلغ الخطورة في القبيلة ووصلوا أحيـــاناً الى خطورة تحكيم السيف لا العقل وامتد النزاع الى تدعيم عوامل النزاع الحزبي بين الجناحين في العاصمة والاقـــاليم وارتفعت حرارة الجدل فامتدت للمنابر الخطابية في الليـــالي السياسية وامتلأت أنهر الصحف بالنقد والقدح وتبادل السباب .

ورفع الأمر للحكومة باعتبار ان الناظر الشاب له الحق كل الحق من حيث النظارة الوراثية ومن حيث موافقة العمد والمشائخ عند ترشيحه ومن حيث اقرار مدير النيـــل الأزرق ووزير الداخلية لتعيينه بعد وفاة أبيه .

ولكن السياسة (امرأة عاهر) كما يقولون . يكثر تقلبها مع الظروف والاحوال الملائمة فتنكر وزير الداخلية السابق لقراره واشتدت مساندة وزير الحكومة المحلية آنذاك للمرشح الجديد يوسف هباني ليس فقط لانـــه قطب جناحهم ولكن أيضاً لانه أخ للمرحوم عبد الله الفاضل المهدي من أمه وبذلك يعتبر صهراً للهادي المهدي ولداود الخليفة عبدالله المتزوجين من كريمات المرحوم عبد الله الفاضل .

وهذا يعني ان المشكلة لها جانب الحزبية العارمـــة وهو جانب قوي ولكن لها أيضاً جانب المصاهرة المزدوجة وهو أقوى وأبقى على الزمن . وبهذه العوامل استطاع يوسف هباني ان يكون ناظراً على الحسانية والحسنات والكواهلة وقد عين الناظر عمر ادريس عبد القادر وكيلاً أولاً له من باب الترضية

وحل المشاكل ولكن نتائج هذه المعركة التي كادت أن تكون دموية لم تطل فرحتها اذ جاء قرار ثورة مايو بعد فترة أقل من عامين بالغاء الادارة الاهلية من هذا الاقليم ضمن الاقاليم الاخرى التي انتهى منها نفوذ الادارة الاهلية الى الابد .

ولعل الحسانية قد تنفسوا الصعداء بهذا القرار الكبير لانهم كانوا في حيرة من أمرهم على النزاع حول النظارة على شمال النيل الابيض .

خاتمة لرئاسة الكواهلة :

وبهذه الخاتمة السيئة انتهى عهد الرئاسات العامة والنظارات في اقليم شمال النيل الابيض وانحل العقد الذي كان منتظماً طوال تلك الفترة التي أرخنا لها وسردنا تفاصيل مراحلها القبلية .

وانهاء سلطات الادارة الاهلية كأسلوب تقدمي في الحكم من ثورة مايو التي التزمت بتصفية الادارة الاهلية قد جاء محققاً لمطالب قبائل الاقليات التي ظلت تناضل ضد الادارة الاهلية منذ بداية تكوينها على عهد ادريس آدم هباني . كما جاء القرار محققاً لآمال الشباب من أبناء الجيل الحديث والذين تشربوا بثقافة العصر الحاضر الذي لا يهضم أسلوب النظارات والمحاكم الاهلية ليقضي بين الناس فيما شجر بينهم .

وفوق هذا وذاك فان إلغاء الادارة كان خطوة وطنية جريئة وتقدمية عجزت الاحزاب رغم معرفتها بسوء الادارة عن تحقيقها وعجزت ثورة اكتوبر التي ضمنتها في الميثاق الوطني

عن الاقدام على تنفيذها حتى جاءت ثورة مايو فالغتها بجرة قلم ولم تلتفت الى الوراء .

قبائل الاقليات بالنيل الابيض الشمالي :

ومع أن قبائـــل أولاد كاهل مثل الحسانية والحسنات والكواهلة هم أصحاب الدار الاوائل وأصحاب الكثرة في الارض والمواشي والعدد البشري – الا انهم ليسوا وحـــدهم في الدار العريضة فقد وجدت معهم قبائل أخرى أصغر شأناً وعدداً ولكنها ذات أهمية من حيث تكوين الاقليم وتوزيـع الرقعة الارضية فيه وسنذكر هنا باختصار تلك القبائل بمـــا يفيد من حيث الثقافة التاريخية والجغرافية .

١ – قبيلة الشنابلة :

الشنابلة عرب رحل وهم في الأصل من بطون قبيلة جهينة الكبرى التي ينتمي اليها كثير من عرب السودان وللشنابـــلة قرابة مع قبيلة دار حامد بشمال كردفان وقد سبق لهم أن سكنوا في منطقـــة (دراو) بمديرية أسوان في مصر قبل دخولهم السودان وعندما نزحوا للسودان اتجهوا نحو الغرب حتى وصلوا منطقـــة (الميدوب) بشمال دار فور ولكنهم تعرضوا لهجوم قبيلة (الزغاوة) الذين سلبوهم كثيراً من إبلهم فاتجهوا نحو الشرق واستقر كثـــير منهم في دار الكبابيش بشمال كردفان وبمضي الزمن انتسبوا اليهم واندمجوا فيهم ولكن قطاعاً منهم اسمه (الجخيسات) التحقوا بقبيلة حمر في

غرب كردفان . أما الذين اتجهوا للنيل الأبيض وهم قلة آنذاك فانهم ينتمون الى قطاع فرعي اسمــــه (الصبيحات) ومعهم أسر من القطاعات الأخرى الشنبلية وحطوا رحالهم في منطقة حول شات وزريقه التابعتين للنيل الأبيض .

وأولاد الفكي عيسى من الشنابلة هم أهـــل الرئاسة لأنهم أسسوا أنفسهم في الأرض ومناهل الماء وارتبطوا منذ عـــام ١٧٨٠ ميلادية مع مملكة السبعات ومع مسلم الأمير مندوب سلطان دار فور في كردفان البحرية وغرب النيل الأبيض وانتظم الشنابلة أخيراً في منطقة شرق العقبة [١] .

ولما نشبت الثورة المهدية انفصل الشنابلة في كردفان عن الكبابيش وعن حمر واستقلوا بقبيلتهم والتزموا الحياد قليلاً مع الثورة وعينوا لرئاستهم « محمد اللبيح » ولكن المهدية عينت منهل ود خير الله أميراً فصار رئيساً للقبيلة بالضرورة وكان الشيخ منهل قوياً ومحترماً وفرض بقوته وقاية كاملة للشنابلة وحتى للكواهلة من اعتداءات أمراء المهدية ومصادرة الأموال وسبي النساء (وقد اشتهر الشنابلة بجمال نسائهم وحسن تكوينهم الجسماني) كما اشتهروا بمحافظتهم على نوعهم وأنســـابهم ولم يختلطوا بالزواج مع القبائل الأخرى ذات الأصول الزنجية .

ولما احتل الحـــكم الثنائي (مصر وبريطانيا) السودان أقرت الحكومة الشيخ منهل ود خير الله ناظراً على عموم الشنابلة

---

(١) ادارة واسعة انتظمت إقليمين كبيرين من كردفان والنيل الأبيض وقد خصص لها بحث في ختام هذا الفصل من الكتاب .

ولكن شنابلة كردفان بايعاز من الكبابيش وحمر قاموا ضده بمعارضة جعلته يهاجر من هناك ليكون رئيساً على قبيلته في النيل الأبيض عام ١٩١٣ الى أن تقاعد بالشيخوخة مختاراً في عام ١٩٢٣ .

ومر الشنابلة بعد استقالة منهل ود خيرالله بمراحل من عدم التوفيق في اختيار العمد والمشايخ الصالحين حتى وجدوا أخيراً توفيقهم في تجميع القبيلة تحت ادارة الناظر الأمين عكام .

والقطاعات الفرعية المعتمدة من قبيلة الشنابلة هم :

١ ـ الصبيحات
٢ ـ أبو عماير
٣ ـ أم بريش (الفرع المنحدر منه منهل ود خيرالله)
٤ ـ أولاد خشون
٥ ـ أولاد داني
٦ ـ أولاد ناصر
٧ ـ أم عبدالله
٨ ـ ناس حداد (الفرع المنحدر منه الامين عكام)
٩ ـ ناس هوال
١٠ ـ الجخيسات (أكثرهم لا يزالون في دار حمر)
١١ ـ العوامرة

وهم جميعاً من رعاة الإبل والماشية وكل ثروتهم منها وقد واجهتهم ظروف تشرد قاسية عندما توزعوا على الكبابيش وحمر والنيل الأبيض وكان الناس يعيرونهم بأن ليس لديهم زعيم

قبيلة حتى استردوا اعتباراتهم برئاسة منهل ود خيرالله وأخيراً برئاسة الامين عكام .

ومن الشنابلة قطاع كبير يقيم الآن بمنطقة شركيلا بشرق كردفان وهؤلاء غير من يعيشون مع حمر والكبابيش ويبدو أن الذين يعيشون الآن في دار الجوامعـــة أسعد حالاً من غيرهم لاختيارهم منطقة غنية بالماء والمرعى.

وهناك بالطبع قبيلة الشنابلة بالجزيرة مركز الحصاحيصا الذين تحرر أجدادهم من حياة البدو الرحل وانصهروا في الحياة الزراعية المستقرة وصارت لهم نظارتهم الخاصة بهم توارثوها ولداً عن والد وأسرة المرحوم مساعد الشنبلي لا زالت تتوارث رئاسة القبيلة هناك ولكنهم فيما نعلم ليسوا على صلة وطيدة ببني عمومتهم من الشنابلة الرحل في كردفان والنيل الأبيض فقد فصلتهم الفوارق الكبيرة – أسلوب المعيشة بين البداوة والحضارة وبقيت صلة الأنساب البعيدة .

٢ – قبيلة الشويحات :

والشويحات قبيلة تنتسب لأصول الجعليين وقد استقروا في منطقة «جبل التيوس وجبل شويح» ولكن أحد أمراء مملكة الفونج كان قد هاجمهم بجيوشه ودحرهم وشتتهم عن مستقرهم الآمن ومنهم من هاجر وسكن في منطقة البديرية حول الابيض ولكن كثيراً منهم عاد بعد الفتح التركي الأول عـــام ١٨٢١ إلى مقرهم القديم بالنيل الابيض.

والفكي ابراهيم إصاغة[1] رئيس الشويحات بأقليم النيل الابيض رحل ليسكن مع قبيلة الماجديـــة ليحتمي بهم من الجوامعة الطريفية حين قتل ابنه أحد أبناء الجوامعة وخشي من بطشهم للثأر . وأثناء الحكم التركي انضم الشويحـــات إلى «شرق العقبة» وصاروا بذلك تحت سلطة عبد الهادي صبر ناظر دار حامد الذي عينه الأتراك حاكماً على الاقليم المسمى «شرق العقبة».

وفي المهدية كان للشويحات أميران من القبيلة أحدهما أرسل لدار حمر وهو آدم ماموس والثاني هو الحلو بن الفكي ابراهيم اصاغة الذي ذكرناه .

وللشويحات في النيل الابيض فروع قبلية هي : ـ

١ ـ المعينات .

٢ ـ أولاد موسى .

٣ ـ أولاد عتيق .

هـذا ولا زال للشويحات بدار البـديرية قرى ومصالح وعموديات ومنهم قطاع كبير في الأبيض نفسها وهو القسم من القبيلة الذي تطور من حياة البداوة إلى حياة الحضارة والمدنية والثقافة ، ومع ذلك فان أهلهم من القرويين يخضعون لادارة البديرية في كردفان على عدم اقتناع دائم بوضعهم هذا .

---

(١) تحريف لاسم اسحاق .

٣ ـ الماجدية والكرتان :

وهاتان قبيلتان من اقليات النيل الابيض تجمع بينهما أسباب التشابه وأواصر القربى وأصولهما ترد إلى الجعليين أيضاً . والقبيلتان كان لهما تاريخ مجيد من القوة والفروسية ويروى أنهما قد هزمتا قبيلة جهينة القوية في دنقلا إبان الزحف القبلي نحو السودان .

وقد استقر الأمر بالقبيلتين حين حطتا رحالهما في منطقة الترعة الخضراء شمال الدويم ولكن الكواهلة تكاثروا عليهم وطردوهم فنزحوا واستقروا في منطقة «عد العود والشقيق» . وعندما حكم الأتراك السودان من عام ١٨٢١ خضع الكرتان والماجدية للأتراك بإخلاص وسار رئيس القبيلة الماجدية فضل الله محمد برجاله مع جيش الدفتردار باشا الذي غزا كردفان . وكنتيجة لذلك أعطاه الترك وثيقة رسمية بتملك الأراضي حول عد العود وأم دسيس والعديد .

وفي المهدية انفصمت عرى الاتفاق بين القبيلتين حسبما كانت تقضي بذلك سياسة المهدية واعتبرت قبيلة الماجدية من جنود الراية الزرقاء تحت قيادة الأمير يعقوب أخي الخليفة عبدالله كما صارت قبيلة الكرتان من جنود الراية الخضراء التابعة لقيادة الخليفة علي ود حلو من ضغيم فرع الشانخاب .

والفروع التابعة لكل منهما هي :

الكرتان :

١ ـ أولاد ماسخ

٢ ـ أولاد الفكي

٣ ـ الكورسي

٤ ـ الفراد

٥ ـ الشبوتاب

٦ ـ الحداريب

الماجدية :

١ ـ أبو روس

٢ ـ الضريسات

٣ ـ أولاد زياد

٤ ـ السولر

٤ ـ قبيلة الجعافرة :

في مدينة الدويم بالذات وفي أم جر وغيرها وفي بعض قرى النيل الأبيض توجد أعداد من قبيلة الجعافرة مثلما يوجدون في بلاد أخرى من السودان مثل بربر والخرطوم وأم درمان والأبيض والرصيرص ومدني وغير ذلك .

وللجعافرة دور كبير في تكوين الدويم كمدينة وهم أول من زرع القمح والخضروات التي لم تكن تعرف للأهالي المحليين وكذلك هم أول من بنى المنازل الثابتة بالآجر والجالوص .

والجعافرة ينتسبون للأشراف وقد عرفوا أول الأمر بسكنهم حول بمبان والرمادي بمديرية أسوان وقد احترفوا التجارة والزراعة ودخلوا السودان بتلك الحرف على خلاف قبائل العرب الأخرى الذين كانوا رعاة ابل وماشية .

وقد نزح فريق كبير من الجعافرة الى ليبيا في شمال افريقيا وتعايشوا مع السنوسيين ولا يزال لهم أحفاد وسلالات هناك قد لا تكون لهم معهم صلات وعلاقات بعد أن انصهروا فصاروا ليبيين .

ويقول (مستر ريد) مدير النيل الأسبق في مذكرات عنهم أن قطاعاً من الجعافرة ومعهم الجد البعيد لعمدة الدويم الاسبق (ابراهيم حسن) نزحوا من مصر ابان السلطنة الزرقاء « مملكة سنار » الى شمال كردفان وسكنوا مكاناً يقال له (فجيغ) ولكنه ومعه بعض الجعافرة نزحوا مرة أخرى الى عد العود ووجدوا ان الشلك يسكنون حول الدويم فأجلوهم عنها بقتال شديد [١].

وفي العهد التركي الاول ألحق الجعافرة بادارة شرق العقبة تحت حكم عبدالهادي صبر ناظر دار حامد بشمال كردفان وعيّن منهم حسين عبدالرحيم جد العمدة السابق المذكور مندوباً من الحكومة عن أهله الجعافرة .

وعندما نشبت ثورة المهدي صارت الدويم حامية حكومية

(١) أغلبية الشلك في منطقة الدويم نزحوا جنوباً بعد غارات الكواهلة والسلمية عليهم قبل خمس قرون .

بخمسمائة جندي وطوبجية تحت اشراف سعيد بك وهو ضابط سوداني جيمابي واستطاعت هذه الحاميــــة أن ترد هجوماً للانصار أرادوا به احتلال الدويم عندما كان المهدي بالأبيض.

وعندما وصل جيش هكس باشا صارت الدويم مينـــاء وقاعدة عسكرية تجتمع فيها القوات ثم تسير بالبر عن طريق (شات) الى كردفان وعندمـــا زحف جيش هكس الرئيسي الى شيكان سار معه عدد كبير من المجاهدين الجعافرة فقتلوا جميعاً مع هكس باشا . أمــا حسين عبدالرحيم فقد التحق بغردون في الخرطوم المحاصرة ومات هناك .

والجعافرة الذين أسروا عند فتح الخرطوم أرسلهم الخليفة فيما بعد مع جيش عبدالرحمن النجومي لفتح مصر ــ ولكنهم إيماناً منهم بأن معظم أهلهم هنـــاك في منطقة أسوان فانــه ليس طبيعياً أن يدخلوا على أهلهم غزاة محاربين فتخلفوا عن الجيش في بربر وعاد كثير منهم بشجاعة الى أم درمان وسجن الخليفة عبدالله أميرهم حسن حسين ثم تركهم ليعودوا للدويم وبعد مدة أفرج عن حسن حسين بعد مصادرة أمـــواله وكل ما يملك .

وذكر (مستر ريد) أيضاً بأن ابراهيم حسن الذي كان عمدة الجعافرة للحكم الثنائي كان في المهدية من ملازمي الخليفة عبدالله وحضر موقعة كرري محارباً ثم حضر موقعة أم دبيكرات التي قتل فيها الخليفة عبدالله عـــام ١٨٩٩ م في جنوب النيـل الابيض .

وللجعافرة كقبيلة عامة فروع نذكر منها :

١ ـ الحسنات

٢ ـ الحسينات

٣ ـ الميرياب

٤ ـ الحسبلاب

٥ ـ العسكراب

٦ ـ الاحمداب

٧ ـ الناصراب

٨ ـ العبدلاب

والجعافرة في تاريخهم الحديث كانوا ـ كعنصر متحضر ـ من أشد خصوم نظارة دار الحسانية وسلطات بيت آل هباني ومع انهم استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بعمودية في الدويم خاصة بهم وتشمل بقية سكان المدينة ـ إلا أن نزاعهم مع الحسانية كان مظهراً معروفاً من مظاهر النضال واستطاعوا أن يجعلوا كثيراً من سكان الدويم من العبابدة والجعليين وغيرهم في صفهم ضد الحسانية . وكانت حجة الحسانية القوية أنهم أصحاب الدار الأصليين وكانت معهم الحكومة في هذا الرأي سواء في أيام الانجليز أو أيام الأحزاب السياسة السودانية بعد الاستقلال .

٥ ـ قبيلة المسلمية :

وقبيلة المسلمية كبيرة جداً ومنتشرة في أنحاء السودان

وخصوصاً في الجزيرة ومنهم العوامرة والزنارخة والبادراب (قبيلة الشيخ العبيد ود بدر) في بادية أم ضبان وغيرها . وهم ينتسبون إلى سلالات سيدنا أبي بكر الصديق ويسكنون بالنسبة للنيل الأبيض في الحدود الشرقيـــة مع النيل الأزرق (المناقل)[1] .

وقد كان المسلمية في الإقليم الجنوبي أيضاً (حول الكوستي) ولكن قبيلة الجمـع طردتهم من هناك وبقي منهم قطاع لعلهم أصحـــاب مشروع أم هانىء الزراعي بكوستي الآن وبعض منهم حول تندلتي .

وهناك قطاع من المسلمية في شات أنشأه شيخهم اسماعيل ود قسم الله الذي كان من مناذيب آدم حامد الدود الدويحي رئيس شرق العقبة .

ويقول رواة المسلمية ان جدهم مسلم كان حصيلة زواج من والده يوسف ووالدته شقيقة الشيخ عبد القادر الجيلاني شيخ الطريقة القادرية في العراق. وقالوا ان جدهم مسلم عاش ومات في قرية لهم اسمها (المسلمية) بالقطر المصري شرق مدينـــة (اسنا) بينما نزح حفيده واسمه داود الجمل إلى السودان عن طريق النيل .

ويقول رجالات المسلمية في مذكرات قديمـــة إنهم من أوائل العرب الذين سكنوا الجزيرة وهناك أدلة فعليـــة على

---

(١) منطقة أم سنيطه شمال شرق الكوة .

ذلك منها أنهم كانوا على جانب كبير من النفوذ الديني إبّان حكم مملكة سنار في أوائل القرن السادس عشر وكان حالهم يدل على أنهم كانوا في الجزيرة قبـــل قرن من بداية مملكة سنار في أول القرن السادس عشر .

ومع أن للمسلمية كقبيلة زعماء كثيرون انضموا للمهديـــة وساندوها ومنهم العبيد ود بدر وأولاده العبـــاس وابراهيم والطاهر وكثير غيرهم ـ إلا أن القبيلة ظلت تحافظ على نهج الطريقة القادرية حتى الآن ولقبيلة المسلميـــة فروع كثيرة نذكر منها : ـ

١ ـ القصيصات
٢ ـ الحباجرا
٣ ـ القامشاب
٤ ـ الشلاخيا
٥ ـ العنيساب
٦ ـ الرفيعاب
٧ ـ الموساب
٨ ـ الميرياب
٩ ـ السيكاب
١٠ ـ الشيخاب
١١ ـ الحادراب
١٢ ـ الهجيلاب

٦ – قبيلة العركيين :

والعركيون أشراف حسينيون وجدهم الأول عبر منطقة السويس من الجزيرة العربية الى مصر . ثم دخل السودان فعبره من الشرق للغرب ثم استقر بقومه في مكان يدعى (بير سرار) بكردفان حيث ترك أخاه وعاد الى مصر .

ومن أجدادهم المعدودين بالصلاح والزهد رجل يسمى الحسن المعارك وهو صوفي زاهد ترك الدنيا للأخرى ومات بالغرب وله ذكر واسع .

وقبيلة العركيين في عمومها كبيرة وكان لها شأن كبير في تاريخ السودان الديني ونفوذ واسع على ملوك سنار من القرن السادس عشر الميلادي وقيل إن جدهم محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي قد هاجر من الجزيرة العربية وعبر السويس الى بلدة القصير ومديرية قنـــا حيث استقر أهلهم ويسمون الأشراف حتى اليوم ثم سار ركب من القبيلة الى فاس في المغـــرب الاقصى ثم قطعوا الصحراء الكبرى للسودان فدارفور فكردفان حيث استقروا في (بير سرار) شرق بلدة بارا وتوفي بهـــا من أجدادهم السيد محمد نافع وأبناؤه وحفيده السيد مقبل وهو جد الشيخ دفع الله الكبير والخمسة العدول الذين ورد ذكرهم في كتاب (طبقات ود ضيف الله)

وقيل ان الشيخ دفع الله الكبير بن السيد مقبل قد نزح من كردفان (للجيلي) شمال الخرطوم وبنى بهـــا مسجداً

لا زالت له آثار . ثم رحل منها بأهله (للهلالية) شمال رفاعة وتوفي ودفن بها .

وقد عاصر ابنه الشيخ عبدالله العركي بداية مملكة الفونج والعبدلاب عام ١٥٠٤ وعقد صداقة مع الملك (عمارة دنكس) وكان عالماً فقيهاً هاجر بعد ذلك للحرمين الشريفين وتولى الافتاء الاسلامي بمكة على مذهب الامام مالك ويروى انه درس الفقه على الشيخ ود جابر في دنقلا .

وقيل ان الشيخ محمود العركي كان عالماً ومتبوعاً وثريا أسس سبعة عشر مدرسة للقرآن والفقه بين مكان يقال له أليس وبين الكوة في النيل الابيض . وقرية (طيبة) الشهيرة الآن بالجزيرة أسسها الشيخ يوسف أبو شره وهو حفيد حفيد العركي وعلم بها القرآن ستين عاماً وقد ذكر ود ضيف الله في طبقاته ان الشيخ يوسف كان كثير النفقة على الناس وكان طعامه اليومي أربعين أردباً من الذرة على حد قول شاعرهم :

الولد اب درشة اربعين اردب

حين زرع ام كشك قام القرع والحب

في الليل البهيم ما نام ولا اتكبكب

والشيخ أحمد الريّح العركي حفيد الشيخ يوسف أبو شره كان ثائراً ضد الترك في السودان وحاربهم حول سنار والجزيرة ثم القضارف ولكن الحكومة تغلبت عليه وابنه الشيخ حمد النيل الريح الذي آزر الثورة المهدية وحاصر الخرطوم مع المهدي ثم قلب له الخليفة عبدالله ظهر المجن وسجنه حتى مات بام

درمان . وتسمى مقبرة حمد النيل بام درمان على اسمه وقبره هناك .

وللعركيين في مختلف عهودهم تلاميذ كتبوا عنهم وعددوا مناقبهم وشعراء أثبتوا أمجادهم في قصائد وأراجيز شعرية جيدة مثل أرجوزة النسب للعلامة الشيخ محمد علي بن القاضي الطيب الانصاري الخزرجي تلميذ القطب الشيخ حمد النيل الريح وهي أرجوزة طويلة انتظمت نسب العركيين من سيدنا الحسين الى آخر من عاصرهم من شيوخهم في هذا العصر وقد رأينا ان ننشرها في هذا الكتاب كما هي لقيمتها التاريخية من حيث تسلسل النسب :

يا ربنا بالمصطفى وآله ... وصحبه ومقتفي فعاله
بشيبة الحمد ذي التصديق ... وعمر كهف الرجا الفاروق
بسيدي عثمان ذي الأسرار ... وبابن عم المصطفى المختار
وبالبتول ثم بالسبطين ... ومن ترقى من بني الحسين
بزين كل العابدين الأمجد ... علي السامي أبي محمد
بباقر من بقر المعارفا ... ولفتوق الدين بالعلم رفا
بصادق بكاظم الأسرار ... اجعل ولا آل النبي شعاري
بسيدي ابراهيم يسر أمرنا ... وعافنا يارب واجبر كسرنا
بسيدي عبد الإله كن لنا ... وفي جميع أمرنا تولنا
يا رب بإسماعيل كن معافي ... من كل داء للتقى منافي
إن عز مأمل وشط مطلب ... بعامر وبالحسين نطلب
بأحمد المطهر السريرة ... يا رب أصلح حالي والعشيرة

بحسن الباهي عظيم الشان ... يا رب ثبتني على الايمان

وهب لنا برافع يا رافع ... عوناً وسلطاناً به ندافع

يا بدر يا محمد قوما لي ... إني شددت بكما حبالي

ويا سلام بالتقي سلامه ... يسر لنا طريق الاستقامة

بنافع وبابنـه محمـد ... نسألك اللهم ستر الأبـد

ومن هنا قد لقبوا بمركي ... هم عدتي لشدتي ودركي

بمقبل جد كرام قد علوا ... على الورى وبالسماح قد سموا

كذا بدفع الله ذي الشهود ... ومنهل العطاش للورود

جد يا إلهي أنت رب الجود ... ورقني منـازل الجدود

بمحمد بحر الكمال النبيـل ... العالم العلامة الجليـل

يارب بالكشيف اكشف كربنا ... من حانه قدس إلهي شربنا

بمن ترقى في مقامات الولا ... ومن سما بالصالحات واعتلا

كنز الرجاء القانت الغطريف ... عبد الإله البطل الطريف

بمـن سمـا بهمـة وجـد ... وزاد في التجريد فوق الحد

محمد القنديل من قد سادا ... ونسكه بالشرع قد أجادا

يا ربنا بيوسف وسيره ... وهديـه وعميم خيره

يسر أمورنا وطهر لبنـا ... وخصنا بغوثه يا ربنـا

وبابنه المكمـل المطهر ... محمد بحر الصفا ذي المفخر

بمن أراح الوفد بل أباحا ... أمواله وانتهج الصلاحـا

بمحمد النبيل التقي من بلي ... فيـا له من بطل ومن ولي

بصالحي أبنائه الكرام ... يارب فاحشرني على الإسلام

وهانا أدعوك بالأخيـار ... خلاصة الأشراف والابرار

بالعركي إمـــام أهل السنة | مَن حُبُّه لدى الخطوب جُنَّة
بالزاهد الحبر العفيف الورع | شيخ الفتوح ترجمان الشرع
بعمر المجذوب ذي الهبات | مقدس الاحوال والصفات
بمن كنى بعائشة وبكر | الفاتك المطاب عالي الذكر
كذا بدفع الله إمام الجمع | في سلكه حقق إلهي جمعي
وبابنه ذى النفرين من اذا | نودي أزال بؤساً وأذى
بعبد الرحمن وابنه الاغر | وعبد الرحمن ونوره الابر
بيونس الشيخ التقي الكامل | ونجله مأوى الضعيف الخامل
محمد من حاز علماً وعمل | ونال في أوج الكمالات الامل
بحمد وبابنه ذي المسك | قوّ إلهي في عراه نسكي
بقسمة الرحمن للأنـــام | وبابنه المجذوب ذي الهيام
وبالإمام من حبي بالاصطفا | وبالولي المستقيم المصطفى
بحمد النيـــل بابن الناجي | كهف الضعيف سند المحتاج
بعبد الرحمن وعابد الرحيم | كذا منوفلي الهمام المستقيم
بالحبر إبراهيم ذى الوفاء | من ستر الاحوال بالخفاء
بحمد أبقرن التقي الزاكي | ونجله سلالـــة النساك
بمن تزكى وترقى وولج | بحر الولا من لقبوه بالفلج
كذاك بالصاموتة من تكمل | وبجبال الشرع قد ترمل
وبالطريفي شيخ كل القرا | بجاهه اكشف إلهي الضرا
فهم هداة للورى وقـادة | وهم شيوخ قطرنا والسادة
وهم ليوث تدفع الحروبا | وهم غيوث تمطر القلوبا
فـكم أزالوا محنـا وكربا | وكم أنالوا مأملا ومأربـا

وهم لخير العالمين آل دلت على أصلهم الافعال
صل على المختار باري الخلق ما أطرب المحل لمع برق
وما أتت ليوسف العطايا من ربه فنفع البرايا
وما سرت نفحة دفع الله لكل حب قانت أواه

وقطاع العركيين في النيل الأبيض الذي قادنا للتوسع في سرد تاريخ القبيلة — قد أسسوا منذ القرن السابع عشر مسجداً في منطقة (معتوق) في قرية (الكريمت) لدراسة القرآن وكان مؤسس هذا المسجد هو الشيخ دفع الله القطب الذي توفي عام ١٠٩٥ بالتاريخ الهجري أو ما يعادل عام ١٦٨٥ ميلادي تقريباً .

ومع وجود هذا المسجد فان العركيين بالنيل الأبيض قد انجرفوا مع البيئة فلم يتفقهوا ويتصوفوا بل سلكوا في الحياة أسلوب الرعاة والمزارعين ولكنهم ظلوا حريصين على أنسابهم والاعتداد بها بين عرب الإقليم كاشراف حسينية وأحفاد الفقهاء والعلماء والقادة :

ولقبيلة العركيين بالنيل الابيض فروع عديدة حسبما ورد في السجلات الرسمية لمركز الدويم نذكر منها : —

١ — النوايلاب
٢ — الفقيراب
٣ — الكامبوياب
٤ — الجقيلاب
٥ — الحماداب ، منهم ابراهيم الكباشي

٦ ـ الموسياب

٧ ـ الحايداب

٨ ـ المسيخاب

٩ ـ الجفيلاب

١٠ ـ الشقيقين

١١ ـ الفريعاب

١٢ ـ المسايد

١٣ ـ الكرواب

١٤ ـ الرايحاب

١٥ ـ القرياب

١٦ ـ السراخنة

١٧ ـ الحجوز

٧ - قبيلة الطوال :

والطوال قبيلة متحالفة مع العركيين والمسلمية ويسكنون الحدود الشرقية للنيل الأبيض تجاه المناقل ولهم عمودية منفصلة في أم أصلة قبل الغاء الادارة الأهلية .

وتبعية الطوال بالتحالف مع المسلمية والعركيين نتجت من أنهم ليس لديهم في الماضي من رجال الدين من يعتمدون عليهم وكان ذلك أسلوب العهود الماضية في كينونة القبيلة إذ لا بد لكل قبيلة من ولي صالح منها يحلفـــون به ويدفنون موتاهم

بجواره ويعتدون بالانتماء الى أرومته وذلك جزء هام من كبرياء القبيلة .

وحدثت لقبيلة الطوال حروب مع الحسانية ومع حلفائهم المركيين في معركة فقدوا فيها زعيمهم (سلوجي) .والأصل في قبيلة الطوال انهم من سلالات قبائل رفاعة (جهينة) وقد هبطوا دارهم هذه منذ مملكة سنار في القرن السادس عشر .

ومن طرائف مذكرات (مستر ريد) عنهم انهم عندما سمعوا بأن المركيين يؤكدون نسبة الشرف النبوي لأنهم أبناء الإمام علي - رأى رجال قبيلة الطوال أن يدّعوه أيضاً فقالوا إنهم أشراف وأن المسألة كلها مسنودة للغيب والذمة وليس لها دلالات مادية مكتوبة سواء للمركيين أو للطوال .

وهناك رواية تقول بأن قبيلة الطوال لهـا علاقة نسب بالكبابيش ولكننا لم نعثر على وثائق تثبت ذلك إلا ما ورد في كتاب سير مكمايكل (دخول العرب للسودان) إذ جعلهم من فروع الكبابيش .

وللطوال قبائل فرعية هي :

١ - النصيرات .

٢ - الدباسيين .

٣ - السواعدة .

ادارة شرق العقبة

لقد ظهر في تاريخ النيل الابيض ذكر ادارة بهذا الاسم

تأسست منذ عهد السلطنـــة الزرقاء أو مملكة سنار وضمت اقليماً كبيراً من كردفان الشمالية الشرقية وكل المنطقة الواقعة في الشمال الغربي للنيل الأبيض إلى ما بعد حدود الدويم مع كوستي .

وقصة شرق العقبة هي أن زعيماً قبلياً من(دويح) اسمه آدم حامد الدود قد نزح من جبل قلي بمنطقة الفونج الجنوبية مع قطاع كبير من قبيلته (دويح) وحط رحاله في منطقة غير مأهولة بالقرب من (البساطة) جنوب غرب الدويم وشيد حفيراً ضخماً للماء لا يزال موجوداً ومعروفاً باسمه .

واستطاع آدم حامد الدود أن يؤسس ادارة أهلية بالتضامن مع عرب القبائل المجاورة كلها سموها (ادارة شرق العقبة) وبهذا الاتحاد العربي تألبوا على إبعـاد الشلك الذين كانت لهم قرى متناثرة غرب النيل وشرقه وبعد ذلك استطـــاع آدم حامد الدود أن يحصل على وثيقة بملكية الدار التي تسكنها (دويح) كقبيلة ووثيقة أخرى باقرار ادارة أو اتحاد شرق العقبة تحت الولاء لمملكة سنار ويكون هو رئيساً لها .

وعند دخول الترك للسودان وانهيار مملكة سنـــار أقره الحكام الأتراك على أرضه كما أقروا إدارة شرق العقبــة على استمرارها ولكن الأتراك قد عينوا لها رئيساً أعلى منـــه له حق الاشراف من كردفان على شرق العقبــة كلها . وذلك الرئيس هو عبد الهادي صبر وهو من دواليب خرسي بإقليم بارا وناظر خرسي والتيارة ، وأضيفت له رئاسة شرق العقبة .

وكانت سلطة عبد الهادي صبر في الحكم التركي تمتد من منطقة الخيران ببحري كردفان إلى منطقـــة الدويم وشات غرب النيل الأبيض بما فيها الشاطىء من الترعة الخضراء إلى الكريدة غرب الكوة .

وقد ذكرت المصادر ان عبد الهادي صبر كان قديراً وقوياً ومتبعاً وانه بالنسبة لكردفان والنيل الابيض إبـــان حكم الاتراك كان الرجل السوداني الثاني بعد فضل الله ود سالم زعيم الكبابيش وملحقاتهم .

واستمر آدم حـــامد مشرفاً مباشراً على (ادارة شرق العقبة) حتى توفي فانشقت الادارة الى قسمين أحدهما تولاه اسماعيل قسم الله من زعماء قبيلة المسلمية والقسم الثاني تولاه آدم حامد الدود ابن الرئيس الدويحي المتوفى وسكن الرئيس المسلمي في منطقة ام باثي وسكن اسماعيل آدم حامـــد في شات في الجنوب الغربي من الدويم .

وقبل المهدية بسنوات قليلة قام الامـام محمد أحمد المهدي بزيارة سرية لاسماعيل آدم حامد في شات ليستوثق من تأييده له وقد وجد منه استعداداً لسند الثورة وتزوج المهدي ابنته بالتبني واسمها فاطمة بت حسين التي أطلق عليهـــا بعد ثورة المهدي (ام المؤمنين) لأنها صاحبت المهدي في كل غزواتـــه وانتصاراته .

أما الرئيس الاعلى لشرق العقبة وكردفان وهو عبدالهادي صبر فان نفوذه قد تقلص في شرق العقبة بعد اعلان ثورة

المهدي لان العرب المتحالفين جميعاً قد وضح ولاؤهم للمهدي وخروجهم على حكومة الترك كما أنه تعرض في بارا وخرسى وغيرها لمؤامرات أثرت على سلطاته فالتحق بجيش الشلالي باشا الذي أباده المهدي بالقرب من جبل قدير وقتل عبد الهادي صبر محارباً ضد المهدي في صف الاتراك .

وبعد التحاق عبد الهادي صبر بجيش الشلالي عينت الحكومة الشيخ محمد شداد عمدة على بارا وهو والد الشيخ اسحاق شداد وجد الطاهر اسحاق شداد شيخ خط بارا وهؤلاء أصلا من البديرية الدهمشية الذين استوطنوا كردفان .

والقبائل التي كانت تشكل ادارة شرق العقبة هي :

١ – قبيلة دويح
٢ – « الجعافرة
٣ – « الشنابله
٤ – « الكرتان
٥ – « الماجدية
٦ – « المسلمية
٧ – « الجعليين
٨ – « الشويحات
٩ – « الحسانية والحسنات .. (قطاعات معينة)

الفصل الثاني

اقليم قبائل البقارة

مقدمة :

هذا هو الاقليم الذي يسمى الآن رسمياً (بمجلس ريفي كوستي) ويبدأ من شمال حدود مركز « الرنك » جنوباً الى شمال بلدة « الشوال » شمالاً ولهذا المركز حدود مع كردفان غرب تندلتي وحدود مع منطقة تقلي في الجنوب الغربي وحدود مع أعالي النيل وحدود مع منطقة الفونج تجاه الشرق للجبلين وحدود مع سنار بعد جبل الدود وحدود مع اقليم المناقل تجاه الشمال الشرقي للشوال وحدود مع الدويم من الناحية الشمالية.

وتمتاز مدينة كوستي بأنها تقاطع مواصلات نيلية مع الجنوب

لأنها الميناء الشمالي للبواخر المتجهة للجنوب ومواصلات حديدية لأن بها (كوبري) كوستي وهو المعبر الوحيد للسكة الحديد على النيل الابيض وعليه تسير مواصلات كردفان ودار فور وبحر الغزال الحديدية .

ومدينة كوستي ذات تاريخ حديث بدأ من أوائل هـذا القرن وقد اكتسبت هـذا الاسم من اسم تاجر يوناني يسمى « الخواجه كوستي » كان أول من أقام تجارة على شاطئها وكانت البواخر ترسو على شاطىء قرية (زينوبة) الشرقي الى ١٩٠٥ ولكن الحكومة اكتشفت ان المرفأ الذي اختاره التاجر اليوناني أصلح لمرسى السفن فتحولت الميناء اليه في ذلك التاريخ .

واقليم كوستي قد تأثر بارتفاع منسوب النيل الأبيض بعد عمليات خزان جبل الاولياء في أول الأربعينيات بأقل مما تأثرت الدويم وأقاليمها ومع ذلك تحولت قرى كثيرة من مكانها الأول الذي غمرته المياه وتحول كذلك الجزء الأكبر من مدينة كوستي نفسها .

قبائل البقارة :

وبالنسبة لهذا الاقليم يعتبر السكان الأصيلون للدار جميعهم من (البقارة) ما عدا الجزيرة أبا وعمودية الشوال الصغيرة شمال كوستي . والتعبير بكلمة (البقـارة) لا يعني أصل النسبة لقبائل البقارة المعروفة في كردفان ودارفور إذ أن

هذا المعنى لا ينطبق هنـــا الا على قبيلتي سليم والتعايشة من حيث صلات الدم ولكننا نعني بـــه الصفة التي تنطبق على أسلوب المعيشة بالنسبة لكل القبائل المتوطنة هنا وهو تربية الماشية (الابقار) بالذات كوسيلة أساسيــة للمعيشة وتكوين الثروة ولذا كانت كلمة بقارة مشتقة من البقر. ومع أن الزراعة وتربية الماشية الصغيرة كالاغنام كانت ولا تزال ممارسة الا أنها لا تعتبر أساسية ولا تحقق الطموح المادي والمركز القبلي الذي يسعى اليه كل فرد منهم وبالتالي تسعى اليه القبيلة كلها .

وفي دار البقارة في كل مكان لا يعتبر الرجل شيئاً مذكوراً الا اذا كان لديه (مراح) أو (قطيع) أو اثنان على الاقل من البقر وبغير ذلـــك لا يقام له وزن ولا يسمع له رأي في العرف السائد [١] .

وقبائل البقارة الرئيسية باقليم كوستي كأصحاب الدار هم:

١ – الجمع .
٢ – دار محارب .
٣ – الاحامدة .
٤ – الشانخاب .
٥ – سُليم (بالتصغير) .
٦ – بنو جرار .
٧ – التعايشة .

---

(١) المراح هو قطيع البقر الذي يبلغ حوالي المائتين عددا .

الانساب :

لقد أثبت جميع المؤرخين بان قبائل الجمع ودار محارب والشانخاب ينتمون إلى قبائل الجعليين في الشمال بأصولهم . كما ثبت أن الاحامدة ينتمون أصلا إلى الكواهلة وان كانوا يقولون أنهم من أصول الجعليين وليس الكواهلة .

أما قبيلة سُليم في أقصى جنوب الإقليم على الحدود مع أعالي النيل والتعايشة في اقليم الجبلين فهما من سلالات قبيلة جهينة الكبرى التي تنتمي اليها معظم قبائل الرحل الكبيرة في السودان مثل الرزيقات والهبانية وبني هلبه والحمر والشكرية وقبائل رفاعة كلها في الشرق وكثير من القبائل المستقرة في النيل الأزرق .

أما قبيلة بني جرار في الحدود الشمالية الغربية بين كوستي والدويم فإنهم أصلاً من بني فزارة وقد كانوا إلى عهد قريب من رعاة الابل مثل جيرانهم في الغرب من الكبابيش ودار حامد والهواوير والكواهلة الكردفانيين . ولكنهم بعد تبعيتهم الادارية لادارة البقارة باقليم كوستي تحولوا الى رعاة أبقار .

وقد عرفت قبيلة بني جوار بالشجاعة والمغامرة لأنها مع قلة رجالها بالنسبة للقبائل الكبرى كانت معرضة للنهب والسلب من الكبابيش والحسانية وغيرهم وقد خلقت فيهم القلة عقدة أدت الى بروز شجاعتهم كما عوضهم الله بانجاب الرجال

الأفذاذ في القتال ممن كانت تضرب بهم الأمثال ويسير بذكرهم الركبان أمثال (موسى ود جلي [1]) الذي غنى له نساء كل القبائل واسترد لقبيلته كثيراً من مالها المنهوب . وأمثال الامير محمد ودنوباوي الذي اقتحمت سريته سراي غردون باشا بعد الحصار ويعزى اليه قتل الجنرال غردون ثم عسكر بجيشه في أم درمان حيث سمي المكان باسمه (ودنوباوي) حتى الآن وغير هذين من مشاهير الفروسية الذين لا يتسع المقام لذكرهم في هذا الكتاب .

ولكل من هذه القبائل الرئيسية السبعة فروع قبلية متعددة كما ان هنالك قبائل أقليات أقامت منذ قرون في تلك المناطق ولكنها ظلت تتبع بنوع من الحلف او الاندماج لهذه القبائل الكبرى بغية اتقاء العدوان في العهود التي كانت القبائل فيها تغزو بعضها بعضاً إما للنهب والسلب وإما للثأر والانتقام أو لاظهار الفروسية والغلبة .

تاريخ البقارة في الدار :

اتضح أن تاريخ القبائل التي ذكرناها في هذا الاقليم كان حتى بداية عهد مملكة سنار كتاباً مقفولاً لا يعرف أحد ما

---

(١) كانت القبائل الأخرى تحاول جهدها ان يتزوج موسى ود جلي من نسائها ليلد لهم فرساناً بالميراث هذا وقد امتلأت سيرته في الحروب بكثير من الأساطير والمبالغات غير المقبولة .

يحتويه وكل ما علم عن هجرتهم الاولى أنهم دخلوا السودان عن طريق مصر بعد أن تولى المماليك السلطة المصرية وفتكوا بالعرب وطردوهم الى الجنوب فوصلوا الى هذه المنطقـــة في القرن الثالث عشر الميلادي . وظـــل الجمع ودار محارب والشانخاب يجوبون البلاد ويتحسسون مقادير الامطار وجودة المرعى . وكانوا جميعاً في بادىء الامر رعاة إبل وماشية صغيرة ولكن عندما توطنوا فتك الذباب بالإبل فتحولوا جميعاً إلى رعاة بقر عبر كل هذه القرون .

وتقول بعض الروايات التاريخية ان البقارة بعد دخولهم السودان لم يصلوا الى هذا الإقليم مباشرة بل طافوا بالغرب ودخلوا مناطق نيجيريا وإفريقيا الوسطى ويقول تاريخ قبيلة الجمع إنهم تعرضوا الى مجزرة حربية من سكان دار برنو بنيجيريا ففروا شرقاً ونزلوا بدارفور في مكان اسمه (أرقد) غرب الفاشر وذلك على عهد السلطان حسين سلطان دارفور .

وتقول روايات تاريخية أخرى ان الاحامدة كانوا أول من وصل هـــذه الدار التي كان يسكنهـــا قوم من (العنج)[1] فطردوهم وأن الجمع وبقية القبائل الاخرى توافـــدوا بعدهم بسنين طويلة . وقيل ان السبب هو ان الاحامدة فعلاً ينتمون

---

(١) من المرجح ان هذا غير صحيح لان هـــذه الدار كانت امتداداً لدار الشلك وليس العنج وكان الشلك أقوياء لم يتزحزحوا للعرب الا بتحـــالف القبائل المتعددة ضدهم .

الى الكواهلة وقد دخلوا معهم اقليم الدويم وسكنوا بالترعة الخضراء ثم نزحوا جنوباً حتى استقروا في مكانهم الحالي وهذا يعني انهم لم يطوفوا بالغرب ونيجيريا والسودان الفرنسي كما فعل الجمع ودار محارب والشانخاب وغيرهم .

وذكر (مستر ريد) مدير النيل الابيض الاسبق في مذكراته بأن بقارة اقليم كوستي عندما طردوا من غرب افريقيا ثم من دارفور لم يصلوا الى اقليمهم هذا الا بعد مرور على تجارب مريرة أخرى في أقاليم أخرى واضطروا للتحالف بينهم (الجمع ودار محارب والشانخاب وسليم) وانتدبوا للقيادات اسماعيل بادي من الجمع وعربي آدم دودو من سليم ومريمي ود بكر من كبيشاب دار محارب وطويل ودعقيلي من فرع دار عقيل التابع للشانخاب أيضاً ثم انهم سكنوا قرب (التيارة) من مناطق الرهد الشمالية وهي من دار الجوامعة . ثم ظهر بينهم بلال أبو حرة من قبيلة الجمع وهو وهو جد الناظر عساكر أبو كلام وأحفاده الآن في رئاسة ادارة البقارة . وابتدأ يسيطر على مسيرة القبائل وشئونها . وتعرضت هذه القبائل الى غارات من الكبابيش ودار حامد فلم يستقر لها قرار .

وذكر بعض المؤرخين بأن كلمة (جمع) للقبيلة المعروفة بالرئاسة انما جاءت من حركة (تجمع) القبائل في حلف واحد كما ذكر مؤرخون آخرون بأن جمع اسم فعلي لهذه

القبيلة وان الجمع والجوامعة والجموعية والجميعاب أسماء لأربع اخوان من السلالات الجعلية تفرقت بهم ضرورات السكن والعيش فاختلفت أساليب حياتهم فصار الجمع والجوامعة أقرب الى بعضها البعض والجموعية والجميعاب أقرب الى بعضها أيضاً واتسعت الشقة بين الفريقين بحكم البيئة وانقطعت الصلات القبلية بين كل من المجموعتين .

ومن ناحية توقيت محدد لدخول قبائل البقارة الرئيسية لمنطقة جنوب النيل الابيض العربي أو منطقة كوستي فإننا نجزم بأن ذلك كان في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر لانهم حتماً دخلوا على دفعات متتالية . ولكي نربط ذلك بالاحداث السودانية الكبيرة نقرر انه يمكننا ان نؤقت لهم ببداية (مملكة سنار) التي انتظم عرشها في عام ١٥٠٤ ميلادية .

المسلمية أيضاً :

وفي هذا العهد ذاته ومع توافد البقارة على الاقليم واختيار كل قبيلة للمنطقة التي تناسبها سكناً ومرعى ومناخاً وفدت قبيلة المسلمية المنتمية نسباً الى بني تميم عن طريق سيدنا أبي بكر الصديق وكانت قوية في عتادها ورجالها تحت زعامة رئيسها حامد السعيد ونزلوا على المنطقة الغربية (للجديد) جنوبي محطة (أم كويكه) الحالية ويبدو أن أرضهم كانت

أخصب وأروى بالماء فصار بعض فصائل البقارة ينزحون اليهم ويحطون الرحال بأرضهم وكانوا يعاملونهم باعتبــارهم أغراباً عن الدار أو ضيوفاً طارئين ويفرضون عليهم أتاوة من البقر عبارة عن ضريبة إقامة .

ويبدو أن المسلمية كانوا حينذاك طبقة أرستقراطية بالنسبة للبقارة فقد روي أنهم كانوا يسيئون الى البقــارة في الجوار ويعاملونهم بقسوة وخشونة وإذلال .

وقيل إن زعيم قبيلة الجمع واسمــه إسماعيل بادي ذهب ليتقصى سوء معاملة قبيلتهم مع المسلمية فزار حامد السعيد الذي عرف غرضه وأراد أن يلمح له بتأكيد إهانتهم لقبيلته في كلمات تحمل وعيداً ضمنياً وقدم شراب المريسة لإسماعيل بادي وقال له (اشرب يا أبو قصيصه باكر لا بد تخرب بريسة) وشرب إسماعيل بادي ثم غنى مضمناً وعيداً من عنده لحامد السعيد بقوله (اشرب لا تتعب . قوز العافية [١] باكر يخرب) .

وقبل أن تقع الحرب بين البقارة والمسلمية كما خططوا لها رأوا أن يسيروا على حذر وان يوحد الجمع ودار محــارب والشاتخاب ودار عقيل صفوفهم في اتحاد يضمن لهم الانتصار على المسلمية الاقوياء والذين لديهم كثير من الخيل والسلاح يبدو

---

(١) قوز العافية مقر المسلمية الرئيسي .

أنهم غنموه من قبائل أخرى أثناء تجوالهم للعثور على سكن دائم .

وقيل ان خلافاً على الرئاسة قد حدث بين إسماعيل بادي زعيم الجمع وإسماعيل ود مردس زعيم دار محارب أدى الى أن يقود بلال أبو حرة جيشاً يغتصب به (نحاس) قبيلة دار عقيل ويوقع بهم هزيمة أدت بهم إلى النزوح من النيل الابيض الى منطقة الفونج في النيل الازرق في مكان يعرف باسمهم الآن (دار عقيل) .

ويبدو ان حـــامد السعيد زعيم المسلمية كان ذا كبرياء متناهية ومغامرات خلت من التفكير الصحيح والحنكة لانه أقام عداوة جديدة من غير ضرورات لها مع الملك آدم ملك جبال تقلى الممتدة جنوب غرب دارهم في أمر تافـــه وأرسل رسالة تهديد الى الملك ومعها طرد بداخله أمواس وقـــال له واحدة لتزيل بها (غلفتك) والاخرى تقطع بها (غلفة) أمك ويقصد بذلك أنه وأمه زنوج غير مختونين على طريقة العرب. واستشاط الملك آدم غضباً وأرسل جيشاً لحرب المسلمية وكان محظوظاً حين حدث أن تجمع البقارة عندما سمعوا بذلك وأرسلوا جيشهم من الناحية الأخرى لحرب المسلمية منتهزين فرصة هجوم التقلاويين عليهم .

ووقع المسلمية بعبط زعيمهم وإثاراته في (كلابة) عدائية كان لا بد معها ان ينهزموا رغم قوتهم وعددهم وشجاعتهم في

موقعة (أم حجر) الواقعة جنوب غرب تندلتي. وانكسرت شوكة المسلمية القوية بعد تلك الهزيمة ورحلت القبيلـة إلى الشمال بمنطقة الدويم ولم يبق منهم في اقليم كوستي إلا القليل الذين تقوم عموديتهم الآن في الجنوب الشرقي لمدينة كوستي وقرى أخرى قليلة في غرب الاقليم .

حرب بين الحلفاء :

دار الاحامدة في جنوب الاقليم معروفة بخيراتهـا في المرعى وانتاج الذرة المطري وعندما انتهت القبائل المتحالفة من حرب المسلمية في معركة (أم حجر) طمع اسماعيـل ود مريمي زعيم دار محارب في أرض الاحامدة فأرسل سرايا من قبيلته تتجمع للعيش هناك ولكن الاحـامدة لم يحسنوا عشرتهم وتخوفوا من هذه البداية فأرسل لهم ود مريمي وفداً منه يتفاوض معهم في ايواء عشائر من دار محارب وأن يبيعهم الذرة ولم يحسن وفد دار محارب المفاوضـة بأسلوب مقبول فقتلهم الاحامدة وهجم عليهم جيش من دار محارب كان معداً فأجلوهم إلى شاطىء النيل الأبيض الغربي وقتـل أبو سيد زعيم الاحامدة .

ثم دارت الدائرة على دار محارب نفسها في سبب تافه وهو أن واحداً من قبيلة سليم قتل بقرة لأحد أفراد دار محارب فأرادوا أن يجعلوا منها مسألة كرامة وطالبوا بالقاتل فـداء للبقرة كثأر وأرادت قبيلة سليم أن تفدي الرجل بأي عدد

من البقر تقرره دار محـــارب ولكنهم رفضوا وأصروا على تسليم قاتل البقرة . وتعاونت قبيلة الجمع مع سليم في الحرب التي أشعلتها قبيلة دار محارب من أجل بقرة ودارت الدائرة على دار محارب فانهزموا ونهبت أبقارهم واضطروا للجلاء من جوار سليم بأن عبروا النيل الأبيض إلى الضفة الشرقية .

في الحكم التركي المصري :

ويبدو أن هذه الحادثة كانت قبيل دخول الترك للسودان في عام ١٨٢١ بدليل أن زعيمهم اسماعيـــل ود مريمي الذي قادهم إلى حرب البقرة قد قتلته الحكومة التركيـــة في أول حكمها لأنه تمرد على الضريبة التي قررت على قبيلته كقطعان للحكومة .

وقد بقيت عشائر صغيرة من دار محارب مع قبيلة الجمع في دارهم مستسلمين بعد تلك الواقعة لأنهم كرهوا أن يكونوا تحت ادارة ود مريمي التي اتسمت بالرعونـــة وخلق المشاكل التافهة لاثارة حروب مدمرة للقبيلة .

وبهذه الواقعة تحقق لقبيلة الجمع رئاسة الشاطىء الغربي كله للدار وتولى زعامة الجمع بعد وفاة بـــلال أبو حرة ابنه (أبو كلام) وتمكن أن يبسط سلطته على الجمع وعلى قبائـــل سُليم والاحامدة والشانخاب بعد جلاء دار محارب وقـــد كانت هـــذه الرئاسة على كل القبائل رمزية وأدبية لأن

القبائل لم تقبل تدخل رئيس من خارج القبيلة في شئونها الداخلية الخاصة .

وعند دخول الترك في عام ١٨٢١ لم تقبل هذه القبائل التي عادت الى تحالفها تحت (أبو كلام) أن تدفع الضرائب التي فرضت عليها كقطمان وقاومت بعض الوقت ولكنها لم تكن تعرف أو تملك الاسلحة النارية فاضطرت للرضوخ تحت عامل عدم تكافؤ القوة في السلاح . ولا بد من ملاحظة ان هذه القبائل وكل قبائل السودان لم تكن تعرف الضرائب المقدرة ولم تمارسها ولذلك كان وقع الضرائب عليهم بالطريقة الحكومية التي تجبى بها ، فيه كثير من الامتهان والاذلال . واذا كانت الضرائب[1] في حد ذاتها اساءة فان اسلوب الاتراك في طريقة جمعها كان امعاناً في الاذلال والقهر والبطش كما هو معلوم .

ولا عبرة بما كان يدفع لمملكة سنار من ضرائب لانها لم تكن مقدرة وكانت تجمع بطريقة الهدايا وليس لها موعد محدد اذ قد لا تجمع لسنوات عديدة وقد تجمع مراراً في عام واحد ولكن الذي يجمعها هو شيخ القبيلة وحده .

ومن النزاع بين الحلفاء اختلاف قبيلة سُليم مع قبيلة الجمع

---

(١) كانت مملكة سنار تعتبر الضريبة على القبيلة دلالة الولاء للحكم ولا تجعلها بمقادير معينة . اما الحكم التركي النظامي الذي ينفق على الجند والادارة والمرافق فقد كان تقدير ضرائبه قاسياً ومجحفاً .

ولما كانت سُليم أقل منهم قوة وعدداً فقـــد شكوهم للحاكم التركي وحدث تحكيم قضى بـأن تتبع قبيلة سليم لمديريـــة فشودة (أعالي النيل) التي افتتحت حديثاً وقد أبعدها هذا عن قبيلة الجمع نهائياً وتحولت سليم بادارة زعيمها أبو حوة ودحماد عن حلفها وروابطها مع الجمع .

وبما ان النيل الابيض لم تكن مديرية على عهد الترك فقد أحيلت تبعيتها الى مديرية كردفان وصار (أبو كلام) يذهب كل عام للابيض لدفع ضريبة قبيلته السنوية هناك للمديرية .

وبالرغم عن هذا الفصل بين القبيلتين ادارياً وجغرافيـــاً فقد حدثت بين الجمع وسليم موقعة حربية في عـام ١٨٧٠ في « دبة التور » جنوب كوستي أسفرت عن خسائر كبيرة بين الجانبين ولكن الحكومة التركية تدخلت وفرضت غرامـات على الجمع ووضعت تعهدات قاسية لحفظ الأمن والسلام .

وفي نفس العام حدث أن قتل جماعة من دار عقيل المقيمين بدار الجمع جماعة من اللحويين وطالبت الحكومة (أبو كلام) بتسليم القتلة من القبيلة التـــابعة له فعجز عن العثور عليهم فقبضت عليه وأرسلته سجينا إلى مصر .

والواقع ان الحكومة أرادت أن تتخلص منه نهائياً لأنه في قرارة نفسه لم يعترف بالحكم التركي ومات أبو كلام في مصر حيث لم يلائمه المناخ ولا الطعام ولا المعاملة .

وتولى الحكم بعده ابنه عساكر أبوكلام قبيل المهدية ويروى أنه كان محبوباً جداً ليس بين الجمع فحسب ولكن عند كل القبائل وكان يقيم حماية كاملة لقبائل الأقليات وللغرباء عن داره لا يمسهم معتد وكان العرب يسمونه (أبو صنقور جبل الغريب) وقد عرف عساكر بالعاطفة ولين العريكة والعدالة.

في المهدية :

ولما نشبت ثورة المهدي عام ١٨٨١ من الجزيرة أبا تبعه جماعة من سكان هذا الأقليم ولكنهم كانوا جميعاً من الذين لهم اتجاه ديني أمثال الخليفة عبد الله الذي عاش والده وأسرته مع الجمع في (أبو ركبه) والخليفة علي ود الحلو وإخوانه من ضغيم فرع الشانخاب وبابكر ود عامر من زعماء العمارنة . أما عساكر أبو كلام فإنه لم يتحمس للمهدية برغم أن المهدي طلب منه معاونته ولكنه اختار أن لا يزج بقبيلته في معارك تصرفها عن ماشيتها وثروتها . وعندما انتصر المهدي في فتح الأبيض عام ١٨٨٣ م أخطر عساكر أبو كلام أن يتصل بالمهدية فنزح إلى كردفان مع رجاله وعاون المهدي على هزيمة جيش هكس في شيكان ولكنه لم يصحبه إلى فتح الخرطوم بل عاد برجاله ليصرف شؤون القبيلة وأرسل ابنه عمر ليساعد المهدي في فتح الخرطوم ولكنه قتل في معركة أبو طليح مع جيش الأمير موسى ودحلو شقيق الخليفة علي الحلو .

وفي عهد الخليفة عبد الله طالب عساكر أبو كلام بالحضور

لأم درمان لاثبات أسباب امتناعه عن الاشتراك في الجهـــاد وبعد إقناع الخليفة عبد الله حبسه بأم درمان وتولى أمر القبيلة أخوه الفكي عرقوب [1] وكان شجاعاً مقداماً وليس له عقيدة في المهدية إطلاقاً بل كان يطلق لسانه فيها بشجاعة وعـدم مبالاة ويبدو أن ذلك كان بسبب معرفته للخليفة عبـد الله الذي نشأ عندهم في (أبو ركبه) وسمـــع الخليفة بانحراف عقيدة عرقوب ونيله منه فأرسل اليه مندوبا من أمراء الجمـع اسمه طه مصطفى ومعه جواب باستدعاء عرقوب لأم درمان ولكن عرقوباً مزق خطاب الخليفة أمـــام الأمير المنتدب وطرده ثم رحل والتجأ بقبيلة سليم حيث كانت له زوجـــة عندهم . ومثل هذا التصرف لم يستطع أي رجل ان يقوم به ضد الخليفة ونتيجته مفهومة سلفاً وهي القتـــل الشنيع له ولكل القبيلة .

وأرسل الخليفة عبد الله للأمير يونس الدكيم في فشوده ليقبضه أو يقتله . وفي لحظة كان فيها الفكي عرقوب واقفاً أمـــام داره في أحد مضارب سليم سمع تصايحا عن غارة فركب فرسة من غير سرج أو لجام واختطف رمحا وواجه المغيرين .ولكنـــه سقط من الفرسة العارية فقتلوه بالحراب وهو على الأرض ثم إن الأمير يونس أسر كل أفراد أسرته

---

(١) الفكي هنا اسم وليس لقباً دينياً كما هو معروف .

وجردهم من مالهم وأرسل القادرين على حمل السلاح للخليفة الذي أرسلهم لحمدان أبو عنجة في القلابات عام ١٨٨٧ م وهو يغزو الحبشة ولم ينج من الموت من أسرة عساكر أبو كلام إلا القليل .

وبعد أن فرغ الأمير يونس الدكيم من قتل الفكي عرقوب ونهب أموال الجمع وسليم وأسر رجالهم زحف إلى قبيلة دار محارب في الشرق للنيل الأبيض بدعوى أنهم تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله واستطاع فرع (الصبحة) التابعين للقبيلة أن يقنعوه بأنهم غزوا مع الغزاة وأن رجالاً منهم لا زالوا مع الخليفة بأم درمان وأبرم يونس معهم معاهدة صلح سلمية بعد دفعهم لغرامات فادحة من الأبقار .

أما بقية قبيلة دار محارب فقد أرسل لهم الأمير يونس مساعده أحمد يونس الشايقي قائد الجهادية المسلحين بالبنادق وأحد أمراء الجمع وهو سليمان إشيقر الذي كان وكيلاً لناظر الجمع وعاش في الحكم الثنائي حتى تجاوز المائة عام ومات في الاربعينيات من هذا القرن . وقاومت دار محارب ولكنها انهزمت أمام السلاح الناري الذي عقروا به جميع خيول فرسانهم ووضعت عليهم عقوبات صارمة وسبيت نساؤهم وأسر رجالهم ثم أرسلوا في سرايا لقمع ثورة (أبو جميزه) في دارفور مع جيش الأمير محمود أحمد وبدلاً من أن تكون قيادتهم من رجالاتهم وضعهم الخليفة عبد الله تحت قيادة

الشيخ البشير ود مضوي أحد رجال الدين المعروفين فيمنطقة الشاخاب ولكنه من الاحامدة [1] .

وما أصاب الجمع ودار محارب وسُليم أصاب غيرهم من قبائل البقارة والأقليات الأخرى في المهدية وقد تشتت شملهم وأفلسوا من البقر والرجال وصار البقارة الأغنياء بثروتهم الحيوانية المعروفة يعيشون على اصطياد دجاج الوادي (بالشوتال) وهو عصا خاصة واصطياد سمك القرموط (بالكوكاب) أي الرمح المدبب .

ولما حدثت موقعة كرري التي انهزم فيها جيش المهدية وسقطت بسقوط ذلكالجيش أراد الله أن يعيد الخليفة عبدالله تجميع فلول جيشه بدار الجمع نفسها في منطقة (جديد) ولكن قبائل البقارة المتحدة أو فلول أهلهم بعد أن أبادتهم المهدية لم ينصروا الخليفة في هذه المرة بل حقدوا عليه انتقاما مختارين بأن جعلوا أنفسهم خبراء للجنرال ونجت باشا يدلونه على أماكن جيش الخليفة إلى أن حدثت موقعة أم دبيكرات التي قتل فيها الخليفة عبد الله ومعظم أمراء المهدية وكان للجمع في هزيمة الخليفة هذه دور بارز وإن لم يكن مرتباً في شكل مؤامرة على المهدية كنظام ديني .

---

(١) الجمع ودار محارب وكل القبائل عندها ثقة روحية كبيرة في الشيخ البشير ود مضوي وداره ومسجده في (العليقة) داخل منطقة الشاخاب جنوب غرب كوستي .

والقبيلة الوحيدة من قبائل هـــذا الاقليم الكبرى التي لم يلحقها ضرر من المهديـــة ولم تتآمر هي عليهـــا كانت قبيلة الشانخاب وضغيم بالذات التي نجت من كل المتاعب تحت حماية ابنها الامير الخليفة علي ود حلو ثاني خلفاء المهدي بعد الخليفة عبدالله وهو من فرع (دغيم) المنتمي للشانخـــاب وبعض المؤرخين يرد قبيلة دغيم الى أصول الجعليين .

في الحكم الثنائي (الانجليزي المصري)

وبعد احتلال الحكم الثنائي للسودان في سبتمبر عام ١٨٩٨م قرر المجمع تحت رئاسة نواي الريح والنور حسن أن يختـاروا لرئاسة القبيلة أحمد البدوي بن النـــاظر السابـــق عساكر أبو كلام .

أما عساكر أبو كلام نفسه فإنه كان قـــد رفض للخليفـة عبدالله أن ينضوي تحت الرايـة الخضراء وجيشها بإمـــارة الخليفة علي ود حلو باعتبار أن الشانخاب كلهم بما فيهم دغيم فرع انتماء الخليفة علي ود حلو كانوا جميعـاً تحت إمرته القبلية قبل المهدية وأنه من حيث الكرامة لقومه وأمجاده يجب أن لا ينتظم مجاهداً عادياً في جيش ينتمي أميره ومعظم رجالاته الى قومه ومرؤوسيه . وغضب عليه الخليفـــة فأرسله الى (الرجاف) بالاستوائية مقيداً بالسلاسل ولكن الامير عربي دفع الله الذي يعرف قيمته وشجاعته ضمه الى قيـــادة جيشه

فمات محارباً في نفس العام الذي انهارت فيه المهدية .

وبعد المهدية استطاعت قبيلة دار محارب أن تتجمع مرة أخرى في دارها ولكنها لم تكن موفقة في اختيـــار رئيس القبيلة فقد خيب الرؤساء ظن القبيلة الواحد بعد الآخر وذلك لانهم أصروا على تحديد الاختيار من فرعهم الرئيسي التقليدي وهو (الكبيشاب) .

وقبيلة سُليم التي جردت من أبقارها أصابت فرصة عظيمة عندما عبر جيش الامير أحمد فضيــــل عند حدود دارهم في عودته من كسلا ليلتقي مـــع الخليفة عبدالله في تجمع (أم دبيكرات) وهجم رجال سُليم على مؤخرة الجيش واستولوا على كل الأبقار والمواشي الاخرى وبعض العتاد الذي كان يسير في حراسة ضعيفــة خلف الجيش . ودخلت قبيلة سليم بغنيمتهم في الأدغال ووزعوا البقر على منـــاطق مختلفة . ولم يكن لدى الامير أحمد فضيل وقت لتعقب سليم واسترداد ما سلب من جيشه لان جيش الجنرال ونجت باشا كان من جهة أخرى يسير خلف جيشه ويتعقبه مطارداً .

وبهذا الصيد الذي سيق اليهم صـــارت قبيلة سليم أحسن حالاً من جميع القبائل الاخرى التي بدأت ترتب حياتها مـــع استقرار الحكم الثنائي من البداية . وتجمعت فروع سليم كلها في اتحاد واحد واختارت لرئاستها الهجـــا ود سليمان وسموه ناظراً ليتفادوا طمع الجمع في بسط سلطتهم عليهم باسم الناظر

وحتى هذا الاجراء لم يمنع وقوع مشاكل كبيرة مـــع الجمع عندما قام الانجليز بتجميع قبائل البقارة المتحدة تحت ناظر واحد في عام ١٩٢٩ م وسيرد ذكر ذلك في مكانه .

أما الاحامـــدة الذين دللوا في كل الظروف على كثير من بعـــد النظر وعضوا على دارهم الخصبة بالنواجـــذ رغم كل الاعاصير التي مرت بهم فقد أعادوا تجميع قبيلتهم أيضاً عند بـــدء الحكم الثنائي وعينوا رئيساً للقبيلة هو جـــبر الدار جبرائيل .

والشانخاب الذين ذكرنا أنهم عاشوا المهدية تحت حمايـــة الخليفة علي ود حلو ظلوا كقبيلة مستمرين تحت نظارة الجمع ولكن معظم رجالات القبيلة كانوا خارج الدار ومات منهم كثير مع الامير موسى ود حلو في موقعـة (أبو طليح) ضد الانجليز وفي موقعـة (كرري) وأخيراً في موقعـــة (أم دبيكرات) مع الخليفة عبدالله والخليفة علي الحلو .

والناظر الذي اختير مع مستهل الحكم الثنائي (أحمـــد البدوي عساكر) كان قاصراً في السن (دون الثامنة عشر) ولذلك فقد عين عليه وصي من الجمع هو سليمان إشيقر الذي كان من قواد يونس الدكيم وفتك بدار محارب . ومـــات الناظر الشاب قبل ان يقرر الانجليز توحيد النظارة للبقارة في قبيلة الجمع ولذلك فقد تعين ابنه المكي البدوي عساكر وكان

أيضاً قاصراً في سنه ووضع أيضاً تحت وصاية سليمان إشيقر[1] الذي عينته الحكومة وكيلاً رسمياً للناظر وله سلطات قضائية واسعة .

وعندما أعلن توحيد النظارة وأسندت لناظر الجمع المكي البدوي عساكر احتج ناظر سليم ووقفت معه قبيلته مقاومة هذا الدمج ومطالبة باستقلالها الاداري رغم أن صلة سليم بالجمع كانت أقوى وأرسخ من صلات الجمع بكل بقية القبائل الأخرى وهم الذين ساروا معهم الرحلة الاستكشافية الاولى في غرب أفريقيا وذاقوا معهم مرارة الطرد من دار الى دار ومن قطر الى آخر الى أن استقروا في نهاية المطاف في إقليم جنوب النيل الابيض ، في القرن الخامس عشر الميلادي .

ثم إن حلف سليم والجمع هو الذي أحرز لهم النصر على المسلمية وعلى دار محارب كما ذكرنا من قبل وهم الذين أوى اليهم الفكي عرقوب عندما هرب من بطش خليفة المهدي وهم الذين تلقوا معه القتل والاسر والنهب عندما هاجمته سرية الامير يونس الدكيم . وقد كان من حسن التصرف والحكمة السياسية أن تقترح قبيلة الجمع بأن يكون ناظر سليم هو الوصي ووكيل الناظر العام وفاء واسترضاء بدلاً من أن يعينوا سليمان إشيقر الذي اندمج في المهدية مع التعايشة كلياً

---

(١) لقد كان هذا الوصي على النظار حجر عثرة في تطور القبيلة رغم ذكائه ودهائه المعروفين .

وترك قبيلته بل كان من رؤوس الجيش الذي فتك بـــدا محارب وقتل ابن عمـه الفكي عرقوب وقتـل وأسر في قبيلة سليم .

ولكن السياسة الانجليزية كان لهـا غرض كبير في فك الروابط الروحية القديمة وخلق النزاعات المحلية التي تجعل كل قبيلة في واقع الامر لا تثق بالاخرى وان كان من الناحية الادارية قد جعلوا جميعاً تحت إدارة نظارة واحدة .

مصير بني جرار

لقد ذكرنا ان بني جرّار ليسوا في الواقع من البقارة لانهم حتى بداية الحكم الثنائي وربما حتى الآن جزئياً يعتبرون من رعاة الابـل وهم الوحيدون في هـذا الاقليم الذين لا تنطبق عليهم صفة (البقارة) من حيث مدلول معناها كرعاة بقر . ومن جهة أخرى فإنهم ينتمون أصلاً الى بني فزارة وسلالات بني ذبيان .

ومن تاريخهم أنهم سكنوا دارفور في القرن السادس عشر بالقرب من الفاشر وكانوا ينهبون قوافل درب الأربعين العائدة بتجارة إفريقيا مع مصر فطردهم السلطان حسن من دارفور ولجؤوا لدار الكبابيش عندما قتل أحد بني جرار شابـاً من قبيلة النوراب وهم فرع الرئاسة للكبابيش وطـالبتهم القبيلة بتسليم القاتـــل فتمنعوا واعتقل الكبابيش فارس بني جرّار

(أحمد ود حريرين) ونشب قتـــال انتصر فيه الكبابيش بالكثرة وبحلف الكواهلة معهم .

وبعد ذلك اضطر بنو جرّار للرحيل من دار الكبابيش فقاموا تحت رئـــاسة زعيمهم (يسن ودمُردُس) وحطوا رحالهم بدار الجمُوعية جنوب أم درمان ولكن الجموعيـة لم يرحبوا بهم فدارت معركة غرب (السليمانية) جنوب الخرطوم وقتل فيها ملك الجموعية ونزح بنو جرّار مرة أخرى وعبروا النيل الأبيض ومضوا جنوباً حتى حطوا رحالهم في مكان من منطقة المناقل اسمه (سَيال جَلي) وكانت المناقل آنــذاك (القرن الخامس عشر) تحت الشكرية الذين لم يرحبوا بهم لأنهم يعتقدون بأنهم قطاع طرق وأخذوا عليهم سوابقهم في دارفور ودار الكبابيش ودار الجموعية .

وأضير بنو جرار كثيراً من التشرد وطـــول الظعن والترحال فمضوا جنوباً وحطوا رحالهم مع قبيلة كنانة ولما شعروا بأنهم غير مرغوب فيهم نزحوا عن كنانة من غــير مبادرةٍ بشر أو استفزاز واتخذوا طريقهم مع النيل الأبيض من الشرق الى أن وصلوا (مخاضة أبو زيد) جنوب كوستي فعبروا النيل ومضوا غرباً ولم يجدوا مكاناً صالحاً حتى وصلوا الى مقرهم الحالي بين مركزي كوستي والدويم الى الغرب قليلاً فأقاموا هناك.

وبعد وفاة يسن مُردُس تولى أحمد حريرين الذي سجنه

ملوك الهمج في الجزيرة وفدته القبيلة بالإبل ثم مـــات وتولى الأمر ابنه (نوباوي) وسمي هكذا لأنه ولد في دار النوبة في مكان يسمى (جبل أبو حديد) أثناء غارة لبني جرار على النوبة ومات الزعيم نوباوي قبل ثورة المهدي بقليل وخلفه على رئاسة بني جرار ابنه محمد ود نوباوي الذي حاصر الخرطوم وفتحها مع المهدي أميراً وسميت باسمه منطقة (ود نوباوي) بأم درمان كما ذكرنا .

ومع أن بني جرار قد أضيروا من المهدية لأنهم خاضوا الحرب من البداية إلا أن فرعين من القبيلة همـــا الجُبارات وأولاد رابح كانا قد تخلفا بالدار واحتميا بالكواهلة وعاشا بصورة طبيعية في تربية الإبل ولما عادت القبيلة الى مرابعها بعد انفضاض ثورة المهدية وجدوا من بني عمهم رعاية وعناية فأعطوهم من الإبل والماشية وقاسموهم فيما رزق الله من أنعام .

وتولى نظارة قبيلة بني جرار عدد من أولاد (نوباوي) تعاقبوا عليها في فترات متقاربة وفي عام ١٩١٩ طرد الانجليز محمد أحمد نوباوي من النظـــارة ولم تتفق القبيلة على رئاسة شخص معين فانفرط عقدهم الى عموديات لا تربطهـا الادارة ولكن تربطها العصبيات القبلية وانفصلت قطاعات بني جرار في كردفان عن رئاستهم في النيل الأبيض وتبعوا لنظارات بحري كردفان حيث يعيشون .

وفي عام ١٩٢٧ م التأم شملهم مرة أخرى واتحدوا تحت

رئاسة محمد ود حمد نوباوي ولكن بعد عامين فقط انحلت كل نظارات القبائل لتندمج جميعاً في نظارة الجميع برئاسة المكي البدوي عساكر باسم قبائل البقارة المتحدة كما ذكرنا من قبل.

ولم يستسلم بنو جرار بسهولة لهـــذا القرار من الادارة البريطانية لسببين أولهما أن بني جرار كما ذكرنا من بني فزارة وليسوا من حيث أسلوب حياتهم بقارة ولكنهم رعاة إبـــل وصلاتهم مع البقارة باهتة وكانت صلات خصومات أكثر منها صلات ود وتعاون . وثانيها أن القبيلة قد ذاقت الأمرين تشرداً وبحثاً عن دار تضم شملها وقد سردنا طوافهم وخروجهم من كل مأزق بموقعة حربية أو ضحايا ثم إنهم لم يجتمعوا على رئاسة منذ عام١٩١٩م حين (رفت) الانجليز محمد أحمد نوباوي وقيّض لهم أن يجتمعوا ليبنوا مجتمعهم الجديد منذ عامين فقط فــلا يمكن أن يرضوا بالاندماج في الجمع طوعاً واختياراً . هــذا بالاضافة الى أن بني جرار يشعرون بعزة وأمجاد تمنعهم من الخضوع إدارياً إلى قبيلة أخرى مهما كان مكانها عند الانجليز .

وكان مدير الدويم في عام١٩٢٩داهية يسمى (مستر ريد)[١] خدم في دار الكبابيش ودرس نفسيات العرب الرحل ورعاة الإبل بشكل خــــاص وكتب عنهم مذكرات مستفيضة .

---

(١) مستر ريد هذا هو المؤرخ الوحيد الذي اهتم بعلاقات القبائل مع بعضها وهو الذي نفذ سياسة دمج النظارات في ادارة واحدة لكل من اقليم الدويم وكوستي .

وطلب منهم إحضار (النحاس) للنويم ليراه الحاكم العام باعتبار أنه أمر عام لكل قبيلة . ولمـــا استلم (النحاس) صادره بأمر الحكومة لأنه يعلم أن تقاليد القبائل. تقضي بأن لا يكون لديها بيت رئاسة موحد إلا بوجود (النحاس) .

والنحاس هو الطبل المصنوع من النحاس والجلد بجلد بقر ويستعمل كطبل حرب وله رجال معينون من القبيلة لاستعماله عند اللزوم ولا يكون الاستعمال إلا بأمر رئيس القبيلة .

وحاكم المدير من اعتبرهم رؤوس الفتنة في عرقلة توحيد الادارة الأهلية لدار البقارة وأخيراً استقر الأمر للحكومة فكانت نهاية عهد هذه القبيلة بوحدة الادارة فانحلت الى عموديات .

القبائل الفرعية للبقارة

وبعد ان سردنا كل ما عرف عن تاريخ قبائل البقارة نثبت هنا أسماء القبائل الفرعية المنبثقة من كل قبيلة رئيسية كبيرة:

قبيلة الجمع :

للجمع ثلاثة فروع رئيسية هي :

١ — الجمع أو (مُناتح)
٢ — دار محارب
٣ — الشانخاب

والجمع ينقسمون إلى ما يسمى البماق الأحمر والبماق الأزرق.

والبعاق الأحمر هم :

١ – عشيش – العبيساب – الكبوياب
٢ – الجابراب
٣ – الصيحاب
٤ – أم مؤمن
٥ – البريشاب
٦ – أم مُجيع
٧ – أم فزاري
٨ – جودة
٩ – خُلُف (بضم الخاء واللام) .
١٠ – قحاقحه وأولاد عقله
١١ – أولاد كوكو
١٢ – أولاد مشامير
١٣ – كنابيت
١٤ – عيال آدم
١٥ – عيال صارم

والبعاق الأزرق هم :

١ – الشريك (وهو بيت رئاسة الجمع)
٢ – حبابيش
٣ – أولاد راما

٤ – زهيبو – حجار
٥ - فاخوره
٦ – أم دفيعة
٧ – التبينة
٨ – أم دريعة
٩ – عبد القوي
١٠ – ناصراب
١١ – أولاد حسن
١٢ – أولاد حماد
١٣ – درموت

قبيلة دار محارب :

١ – الخنفرية
٢ – الصبحة مجموعة الحمر
٣ - تزّي
٤ – الكبيشاب ـ رئاسة القبيلة
٥ – الثوماب .
٦ – الوغداب
٧ – الرواشده
٨ – المعداب
٩ - النوراب مجموعـة الزرق

١٠ – البديرية (ليسوا قبيلة البديرية العباسية)
١١ – النبّاحة

قبيلة الشانخاب الزرق :

١ – هشابات
٢ – حواويش
٣ – أولاد طرقة مجموعة حريرات (أولاد هارون)
٤ – عنيات
٥ – أم عرديبه
٦ – أم جيد حمار مجموعة سعيداب
٧ – أم كتين
٨ – أم شقر مجموعة الجضيعاب
٩ – أم جمل
١٠ – المواليد
١١ – أم جميزه مجموعة المشالقة
١٢ – الدشونات
١٣ – القرينات مجموعة أولاد حسب الله
١٤ – المسامير

قبيلة الشانخاب الحمر :

١ – السروراب
٢ – عبد السلام

٣ – أولاد عون
٤ – أم عقال
٥ – أبو خليفه مجموعة الحدواب
٦ – عيال الضكر
٧ – أم سحيلة
٨ – عيّاد
٩ – عيال عامر
١٠ – عيال بليله مجموعة القناطير
١١ – الاصفر
١٢ – الدقالشه
١٣ – أم سريح
١٤ – أبو حميدي
١٥ – الصواصيب مجموعة أولاد شن
١٦ – أم فزاري
١٧ – الربعاب
١٨ – أم جِبة
١٩ – العتياب مجموعة ناس الحاج
٢٠ – أم مرعي
٢١ – القناديل
٢٢ – الصبيّاب
٢٣ – أم هشابة – مجموعة دغيم
٢٤ – كافلي

قبيلة دار عقيل :

قبيلة دار عقيل تعتبر أصلاً من الشانخـاب ولكن النزاع الذي حدث إبـان الحكم التركي السابق في القرن التاسع عشر فصل القبيلة الى شطرين أحدهما غادر الدار وهاجر الى منطقة الفونج غرب النيل الازرق في الاقليم المعروف باسم القبيلة .

والشطر الآخر والاصغر منهم اندمج ادارياً مع الجمع هنا وإن احتفظ باسم القبيلة ، وفروعها هي :

١ — السبعاب
٢ — أم هجو
٣ — أبو قعود
٤ — مطارفة
٥ — أبو عون
٦ — الحناتله

وهناك فرع يسمى الدقالشة هو في الاصـل من سلالات الجعليين ولكن طول المعايشـة والبيئة جعله ضمن فروع دار عقيل بالتبعية فانصهر فيهم .

قبيلة سليم :

والقبائل الفرعية المتناسلة من سليم هي :

مجموعة محبوبة :

١ ـ ناس ابراهيم ـ (أبو الحـاج وقطر وعبد الحكيم) بيت الرئاسة

٢ ـ ناس مرور
٣ ـ الزبودات ـ (ناس دليل ـ دحروح ـ بورو ـ جوك)
٤ ـ ناس أبو دهيبة
٥ ـ أولاد أم كسبه ـ (أم قيلة ونـــاس عوض وناس موسى)
٦ ـ ناس أبينا ـ (حموده ـ مقدم ـ بول شاو)
٧ ـ ناس بلال ـ (الاحمر والازرق والحسينات)

مجموعة أم طارف

١ ـ حكيمة ـ (جودة ـ جاووده وعثمان وماجنده)
٢ ـ ناس ادريس
٣ ـ أولاد تاير ـ (ناس سليمان ـ نـاس عبدالله ـ ناس اسماعيل)
٤ ـ عواضه ـ (قرمان ـ الفكي ـ بول حسيني)
«وهذا الفرع أصلاً من دويح ولكنه تأقلم مع سليم»
٥ ـ أولاد سليم .

وكلمة ناس في تسميات الفروع في كل القبائل تعني عندهم فرع أو قطاع أو بالتعبير المتعارف السودانين (خشم بيت)

قبيلة الأحامدة :

وفروعها هي :

مجموعة الجوامعة :

١ – قماراب
٢ – حسيناب
٣ – أولاد أبو علي
٤ – الواصلاب
٥ – أم سعيد
٦ – شاوراب
٧ – غنياب
٨ – شريشاب

مجموعة أسفيا :

١ – دياب (فرع الرئاسة)
٢ – المحمداب
٣ – المعلا
٤ – الزريقاب
٥ – الشكالي
٦ – الزموماب
٧ – الخالاب

٨ – النوراب

٩ – الدباكلا

مجموعة السهوات :

١ – الكواسية

٢ – الحقجاب

٣ – الشيخاب

٤ – الدقيلاب

٥ – القضاوية

قبائل الأقليات :

ليس في إقليم البقارة جنوب النيل الأبيض من الاقليات القبلية ذات الشأن مثل مـا في الإقليم الشمالي (الدويم) كما جاء في الفصل الاول .

وكل ما يمكن أن نسميه أقليات قبلية ممـا يساوي على الاقل إدارة عمودية واحدة هو وجود عموديتين لم يرد لهمـا ذكر مع قبائل البقارة الاصلية التي فصلنا تاريخهـا وأسلوب عيشها ومقدار قوة كل منها والسلالات الفرعية التي نشأت منها.

والعموديتان هما :

قبيلة التعايشة :

وأصل هذة القبيلة من البقارة ومن سلالات قبيلة جهينة

الكبرى وهم بنو عمومة مع قبيلة سليم ولكن وطن القبيلة الاصلي كما هو معروف في (رهيد البردى) وهو إقليم من مركز جنوب دارفور .

والقطاع من هذه القبيلة الذي سكن بالنيل الابيض لم يتجاوز تاريخه نهاية حكم الثورة المهدية في نهاية القرن الماضي. وكما هو معلوم فان التعايشة كانوا قبيلة الخليفة عبد الله الذي أمر بهجرتهم جميعاً من دارفور إلى أم درمان ليكونوا سنداً للمهدية ضد مؤامرات المتذمرين من حكم الخليفة من سكان شمال ووسط السودان .

وقد تسلم التعايشة في عهد الخليفة مسؤوليات ضخمة في الحكم وعاشوا كطبقةارستقراطيةحاكمة في كل أرجاءالسودان.

ولما انتهت المهدية في ١٨٩٩ م بموقعة أم دبيكرات التي حدثت في نفس هذا الإقليم (دار الجمع) وقتل الخليفة ومعظم رجال الصف الاول من أمراء (التعايشة) الكبار وأسر أبناء الخليفة والامير يعقوب وبعض أمراء التعايشة الشبان مع نسائهم وأرسلوا للاقامة برشيد في شمال دلتا مصر . لما حدث هذا كله للتعايشة كان لا بد لمن بقي من القبيلة أن يتشردوا بعض الوقت مطاردين من الحكومة الجديدة ومن القبائل السودانية الاخرى التي انطوت على حقد كثير ضد الكثيرين من أمراء ومقدمي التعايشة رغم أنهم دفعوا ثمن حكمهم ورياستهم قتلاً وتشريداً لجميع أسرهم بالجملة .

والتقطت الحكومة بعض من بقي من الأمراء ليكونوا تحت المراقبة هم وأسرهم فأسكنتهم بأم درمان (العباسية) وأجرت عليهم معاشات شهرية صغيرة وسكن معهم كثير من ذوي القربى من القبيلة كما أن الحكومة أقامت أحد الديوم في العاصمة (ديم التعايشة) لسكنى الكثير منهم . وقد استفاد هؤلاء وأولئك من تعليم أبنائهم في المدارس التي افتتحت في أول هذا القرن فتخرج من أبنائهم الضباط والمهندسون والموظفون وفي عطبره خصت الحكومة أبناء الأمراء بتعليم مهني يضمن لهم الحياة الكريمة .

ورسا التشرد في أول القرن بمعظم أبناء القبيلة في مناطق مختلفة من الأقاليم الزراعية لأنهم فقدوا مواشيهم ونشأ منهم جيل في المهدية ترعرع في نعيم الإمارة والحكم والإدارة وابتعد عن الأسلوب التقليدي للقبيلة وهو تربية الأبقار .

ومن تلك الأقاليم التي أوى إليها التعايشة في مجموعـــات، منطقة الفونج وبعض مناطق كردفان ثم منطقة النيل الابيض هذه التي نتحدث عنها هنا .

حط التعايشة رحالهم في منطقة الجبلين على بعد نحو ستين ميلاً إلى الجنوب من كوستي وأسسوا كذلك قرى منطقـــة (أبو ضلوع) واحترفوا زراعة الفول والذرة وبعض الزراعة النيلية وحصاد الصمغ من الغابات وقد عينت الحكومـة لهم عمودية ادارية منفصلة عن قبائل البقارة المجـــاورة اعتباراً

لماضي مستوياتهم الاجتماعية وإبعاداً لهم عن مشاكل القبائل الكبرى المجاورة مثل دار محارب وسليم وفروعها .

واختير للعمودية من أول عهد الحكم الثنائي الشيخ أحمد أم بده وهو من الامراء السابقين بالمهدية وأحد حفظة القرآن الكريم ويمتاز باحترام أهله لرجاحة فكره وعدالته وذكائه .

والقبائل المجاورة لم يبخسوا التعايشة حقهم في الاعتبار الادبي بوجه عام ولذلك لم يتعرضوا في منطقة الجبلين هذه لمشاكل كبيرة على مستوى القبائل ولا عبرة بالمشاكل الفردية أو الاسرية من حين لآخر .

والتعايشة في منطقة الجبلين استفادوا أيضاً من وعيهم واستقرارهم الزراعي فعلموا أبناءهم جهد المستطاع وعملوا في حقل العمال للحكومة وغيرها .

وللتعايشة في هذه المنطقة عدة شياخات ولكنها جميعاً تحت عمودية واحدة وتقع العمودية إدارياً ومالياً تحت نظارة البقارة المتحدة وبعد تطور الحكم المحلي صارت تخضع للمجلس الريفي .

قبيلة اللحويين

مع ان الاقامة الاصلية لقبيلة اللحويين في منطقة القضارف التابعة لمديرية كسلا إلا أن جزءاً منها يسكن النيل الازرق

وجزءاً آخر يسكن بادية النيل الابيض الواقعة بين الكوة والجبلين شرق النيل وبعيداً عن الشاطيء وهذا القطاع منهم يعرف بأنه جماعة ود اللبيح وهم عرب رحل يخضعون إدارياً لعمودياتهم خارج النيل الابيض ويرعون الإبل [1] .

الجعافرة في دار البقارة

لقد سبق لنا أن ذكرنا في الفصل الأول تاريخا لهذه القبيلة بالنسبة للمقيمين منهم في الدويم وأم جو وغيرها ضمن ما كتبنا عن قبائل الاقليات .

وفي هذا الأقليم (دار البقارة) يقيم قطاع من قبيلة (الجعافرة) في منطقة الشوال وهم من صميم أصل قبيلة الجعافرة ولهذا فلن نكتب عن تاريخ القبيلة ترديدا لما ذكرنا من قبل .

ومنطقة الشوال هذه التي يسكنونها تشكل عمودية واحدة من (مجلس ريفي كوستي) وتتبع لها كل القرى والمشاريع الواقعة شرق الجزيرة أبا . وكانت الجزيرة أبا تابعة اداريا لعمودية الجعافرة ولكن بعد ازدهار الجزيرة وتشعب مشاكلها بالمشاريع الزراعية واكتظاظها بالمهاجرين من الأنصار تعين لها

---

(١) ليس لهذه القبيلة عمودية ادارية بالنيل الأبيض ولكن لها وجود من ذ ع متنقل .

عمدة خاص وانفصلت عن عمودية الشوال منذ الثلاثينيات من هذا القرن وإن كانت الادارة البريطانية قد جعلت للعمدة مصطفى حسن الجعفري اشرافا اسميا على منطقة أبا لم تشأ أن تنزعه .

وسكان عمودية الشوال كلهم مزارعون وبدارهم مشاريع زراعية خصوصية تمتلكها الدولة بسبب قانون الإصلاح الزراعي ثم بسبب مؤامرة الجزيرة أبا وقرار حراسة أموال دائرة المهدي . وهناك مشاريع أخرى خاصة لأفراد من المنطقة منهم العمدة الحالي وابنه .

ورئاسة الجعافرة في الشوال بدأت من أول القرن بعمودية المرحوم مصطفى حسن وبعد وفاته انتخب ابنه عمر مصطفى حسن عمدة للشوال وهو الآن يواجه تهمة الخروج عن طاعة الحكومة عندما قبض بعد مقتل الهادي عبد الرحمن المهدي في محاولة للجوء لاثيوبيا .

الفصل الثالث

معلومات متنوعة

سنورد في هذا الفصل معلومات تاريخية واقتصادية واجتماعية متنوعة عن الاقليم العربي كله للنيل الابيض . من حدوده مع قبيلتي الشلك بغرب النيل والدينكا بشرقه الى حدوده مع الخرطوم في الشمال وكذلك بحدوده الشرقية مع النيل الازرق الى حدوده الغربية مع كردفان والجنوبية الغربية مع الجبال الشرقية (تقلى)

وقد رأينا أن هذه المعلومات التي لم تجد مجالاً لاقحامها مع الحديث التفصيلي عن السلالات العربية الاصيلة التي عاشت

عبر التاريخ منذ دخول العرب للسودان – رأينا أنها ضرورة مكملة لكتاب يضم بحوثنا عن النيل الابيض العربي وبغيرهـا يرى النقص واضحاً في رسالة الكتـــاب من حيث استيعاب التطورات الحديثة التي لا يمتد تاريخها الى مـــا هو أبعد من القرن التاسع عشر أو بتحديد أكـثر من مرحلة دخول الحكم التركي المصري لبلادنا في عام ١٨٢١ ميلادية .

العرب والشلك

لقد ذكرنا في أكثر من مكان من بحثنا هـــذا بأن دخول القبائل العربية واستيطانها في مناطق النيل الابيض قد اقتضى نزوح الشلك عنه الى الجنوب طوعـــاً واختيـــاراً في بعض الاحيان وإثر مواقع واحتكاكات في أحيان أخرى .

والمعروف أن قبيلة الشلك التي تسكن شاطىء النيـــل الابيض الغربي من (بحيرة تو) جنوباً قد تمددت في المـاضي الى أن وصلت مشارف الخرطوم ثم تقلص ظلهم شيئـاً فشيئاً الى أن وصلوا حدود مديريتهم (فشودة) في أيام الحكم التركي وهي نفس مديرية أعالي النيل حالياً . وليس يخاف ان الشلك لا يجدون مجالهم في التوسع والتمدد الا للشمال لان المنـــاطق الجنوبية لهم يسكنها النور وهم اقوى منهم وعلى عداء تقليدي معهم [1]

---

(١) وقـد وصل زحف الشلك قبـــل القرن الخامس عشر الى مشارف الخرطوم وقد وضعوا كثيراً من أسماء القرى مثل الكوة وغيرها .

ولا بد ان نذكر هنا حقيقة هامة قد ثبتت من التاريخ المتناقل كما ذكرها بعض الرحالة الاجانب الذين ارتادوا النيل الابيض من القرن الثامن عشر والتاسع عشر وذكرها بعض الاداريين من الانجليز إبان الحكم الثنائي ١٨٩٨ – ١٩٥٦ م

تلك الحقيقة هي أن القبائل العربية لم تطرد الشلك من مناطقهم القديمة في النيل الابيض وانما شاركوهم الوطن الذي كان متسعاً لهم جميعاً ولأضعافهم في ذلك الزمن . ولكن الشلك في معظم حالات نزوحهم عن تلك الاقاليم كانوا مختارين للهجرة جنوباً عزوفا منهم عن الاختلاط بالعنصر العربي الجديد وخوفا على كيانهم من الانصهار مستقبلاً في السلالات العربية التي كانت بطبيعة الحال أقوى منهم وأكثر وعيا واستنارة بالثقافة العربية التي مرت على أطوار من الفتوحات والانتصارات ربطتها ببعض حضارات الامم الاخرى في الشرق الاوسط . وبالثقافة الاسلامية التي جعلتهم يعيشون في حدود قوانين وشرائع لا يعرفها الشلك ولا يريدون ان يعرفوها .

ومع ذلك فإن القبائل العربية المقيمة على حدود الشلك من الاحامدة وسليم وبعض قطاعات دار محارب قد اختلطت فعلاً ببعض الشلك وعايشتهم وارتبطت معهم بالعمل والزواج وكثيراً ما نجد بعض الاسر التي يجري في عروقها دم الشلك والعرب سويا . وهم في ذلك مثل الدينكا والبقارة على ضفاف

بحر العرب حيث تجد الدماء العربية من رزيقات ومسيرية في سلالات الدينكا ، كما تجد دماء الدينكا في سلالات العرب .

الرباط بين الشمال والجنوب

والنيل الابيض - كما هو معروف - كان الوسيلة الوحيدة التي تصل الشمال بالجنوب وبالعكس . فالرحالة الجوابون لمحاولات استكشاف منابع النيل وعشاق المخاطر والمجاهل في التجارة والمغامرات وبعثات التبشير المسيحية القديمة من القرن السابع عشر كانت كلها تركب عباب النيل الابيض على ظهور السفن البدائية الشراعية حتى صارت بواخر وصنادل في القرن التاسع عشر .

وهذه الاهمية الطبيعية للربط بين الشمال كله من مصر وبين أفريقيا السوداء قد اقتضت أن تكون لشواطىء النيل الأبيض أهمية تجارية وتمويلية ملحوظة منذ بداية تجارب السفر عن طريقه .

ولعل ما جنته أهميته هذه في الاجيال الماضية على السودانيين عرباً وزنجاً كان أسوأ من حصيلته من الفوائد التجارية وغيرها . ذلك لانه كطريق قد شجع المغامرين الاجانب على ارتياده لتجارة الرقيق التي بدأوها وفتحوا أبوابها على مصراعيها ثم استخدموا فيها السودانيين من شماليين وجنوبيين على السواء حتى صارت في فترات معينة من أربح

أنواع التجارة التي وقع عبء آثارهـــا على الجيل الحاضر من السودانيين الشماليين وحدهم من حيث مسؤولية الاتجـــار في أرواح الناس والبطش بهم . وقـــد نسي الذين يرمون بهـــذه المسؤولية على عواتق أبناء هذا الجيل أن أخطـــاء الاسلاف بيننا وبين الجنوبيين كانت مشتركة وأن المغامرين الشماليين في الجنوب في القرن الماضي وما قبله ما كان بامكانهم الاتجار في الرقيق لولا أن سلاطـــين الجنوب أنفسهم كانوا شركاءهم في ذلك العمل غير الانساني [1] .

ومع تجارة الرقيق كانت هناك أنواع من التجارة الصادرة والواردة بين الشمال والجنوب بانتظام . ومن أهم ما كان يرد من الجنوب ويصدر لمصر وتركيا وغيرها من منتجات الجنوب تجارة سن الفيل وريش النعام وسن الخرتيت والقرن وجلود النمر والأصلة والتمساح وكذلك فراء الثعالب والصيد الملون وبعض الحيوانات الحية مثل جديان الصيد وأشبـــال الاسود والنمور والفيل ووحيد القرن والزراف والنعام وغير ذلك .

ومن السودان الشمالي يصدر التجار بعض مواد الغـــذاء وأنواع الملابس المزركشة والملح والسكر أحياناً وأهم من هذا وذاك مصنوعات السلاح الأبيض من أنواع الحراب المختلفة

---

(١) لقد أثبت عددمن المحققين الانجليز ان تجارة الرقيق قد بدأها اجانب امثال خواجة غطاس الارمني والعقاد المصري والبلالى المغربي وكلهم من عملاء الاتراك في امبراطوريتهم الواسعة .

والمدى والحديد الذي يستعمل كزينة ومجوهرات وأنواع الخرز الملون المختلف الأحجام وغير ذلك . وكانت كل سفينة أو اثنتين بما تحملان من بضائع تحتاج إلى سفينة أخرى مليئة بالرجال المسلحين لحراستها وأخرى صغيرة وسريعة للاستكشاف تسير في المقدمة بسبق يوم أو ساعات كثيرة لأن الغارات النهرية المسلحة لم تكن أقل من منظمات قطاع الطرق للقوافل في السفر البري في السودان الشمالي .

وهذا كله يعني أن لا بد من مصانع متعددة للسفن الشراعية ومراكز أخرى لصيانتها وإصلاحها على مدى طول النيل الأبيض شرقاً أو غرباً . ولهذا فقد نشأت على ضفتي النهر في هذا الإقليم الذي نؤرخ له عدة قرى ومناطق بدأت كمحطات لعمل السفن مثل السنط والاندراب والحراز والسدر وغيره .

القوميات التي نشأت

ولهذا السبب — صناعة السفن وصيانتها كتجارة أو عمل رابح في ذاته — نزحت جماعات تنتمي في مجموعها لقبائل المديرية الشمالية وتأسست في مناطق مختلفة من النيل الأبيض. وقد نزح بعضهم في شكل أسر كاملة بنسائهم وأطفالهم وكونوا معسكرات كانت محدودة ولكن بمرور الزمن صارت قرى كاملة وأوطاناً للسلالات التي نسلت منهم منذ عهود مملكة

سنار في القرن السادس عشر فالحكم التركي فالمهدية والحكم الثنائي حتى الآن .

الدناقلة

والدناقلة هو الاسم العام لأبناء منطقة دنقلا بصرف النظر عن قبائلهم المختلفة وانتسابهم لشتى الأصول العربية والنوبية اذ منهم الركابية والجوابرة والبديرية والدفارية وقبائل بدين وكرمة النزل وحفير مشووأوربي والخندق والدمبو وغيرها .

والدناقلة عموما هم أبرع من عرف بصناعة السفن الشراعية الضخمة ولذلك نزحت منهم مجموعات كبيرة للنيل الأبيض أسسوا أنفسهم على الشاطىء الشرقي ثم استقروا وتناسلوا واتخذوا مناطق هجرتهم الجديدة أوطانا لهم ولأحفادهم فيما بعد وبعضهم امتزج مع القبائل المحلية المتوطنة .

ومن تلك المناطق القطينة وبعض ضواحيها والدنبود وود الزاكي والقراصة وشرق الدويم والكوة والجزيرة أبا (أسرة الإمام المهدي) وغيرهم .

ولم يكن عمل الدناقلة قاصراً على صنع السفن في مرافىء الغابات على النيل بل كانوا أيضاً ريسين وبحارة على نفس السفن ولهم خبرة واسعة بمجاري النيل ومسالك المياه مع السدود المعروفة في أعلى النيل الابيض مما يحتاج إلى خبراء أكثر ذكاء وحصافة من خبراء الطرق البرية .

وقد برع من الدناقلة في المغـامرات والحروب في جنوب السودان رجال كثيرون كانوا على جانب ضخم من الذكاء والادارة والشجاعة مما وضعهم في مراكز مسؤوليات كبيرة في الحكم التركي أمثال كرم الله كركساوي الذي كان مديراً لمديرية بحر الغزال ثم انضم للمهدي بعد فتح الابيض ومثـل إدريس ود أبـــتر الذي تولى رئاسة المديرية أيضاً وله مع الزبير باشا رحمه خصومات وحروب ومنازعات ومثل ساتي بك وغيرهم من أبناء الدناقلة .

ومع وجود الدناقلة بأعداد وفيرة في كثير من قرى النيل الابيض التي ذكرناها وفي الدويم وكوستي وتندلتي وغيرهـــا إلا أننا نحتسبهم من القبائل المؤسسة للاقليم أو السلالات التي استقرت منذ دخول العرب للسودان في هذا الإقليم .

الجعليون :

وللجعليين نفس أسلوب الهجرة للنيل الابيض فانهم نزحوا في مجموعات صغيرة والتزموا جانب الدناقلة كحلفاء وأصدقاء ورفاق هجرة فسكنوا معهم حيثما سكنوا . وكان عمـــل الجعليين الاساسي في التجارة المتنقلة بين الاقاليم وفي الزراعة . ومع افتتاح السفر للجنوب نزحوا مع الدناقلة ووجدوا نفس فرص الفروسية والمغامرات ولعلهم في هذا المضمار قد تفوقوا على الدناقلة عندما ظهر الزبير باشا رحمه في القرن التاسع

عشر واستطـــاع أن يفتح غرب بحر الغزال حتى مشارف إفريقيا الوسطى وأخضع قبيلة الرزيقات لسلطته في منطقة (شكا) ثم تعاون معهم على فتح دارفور عام ١٨٧٦ ميلادية وقتل السلطان إبراهيم قرض وتم تعيينه من الخديوي إسماعيل مديراً على بحر الغزال ومديراً في نفس الوقت على دارفور ثم استدعاه الخديوي للقاهرة للاحتفال بانتصاراته حيث اعتقله هناك . فلم يرجع للسودان إلا بعد حملة لورد كتشنر عـــام ١٨٩٨ م .

ونفس القرى التي سكنها الدناقلة سكن معهم فيهـــا الجعليون - وزاد الجعليون على الدناقلة انتشاراً بأن سكنوا بأماكن كثيرة في غرب النيـــل الابيض بمنطقة شبشة والعرشكول والترعة وظهر منهم أولياء معتقدون كان لهم أمر ونهي ورأي مسموع أمثال الشيخ برير في شبشة وغيره .

الشايقية :

ومع الدناقلة والجعليين نزحت جماعات من الشايقية سكنوا القطينة وود الزاكي والكوة والدويم وشات وابو صبيرة .

وكان عمل الشايقية الرئيسي إبان المغامرات في الجنوب منذ بداية الحكم التركي المصري هو أن يقوموا بأدوار الحراسة للسفن وأن يعملوا محاربين محترفين مسلحين لمن أراد أن يستخدمهم وهم بالاضافة لإتخاذهم هذا الطريق وسيلة للكسب

يتعشقون الفروسية والحرب ولهم فيها باع طويل ويحبون المناصب الرسمية ولذلك استخدمهم الترك هناك سناجق وقوادا للسرايا وبرز منهم كثيرون في تلك المجالات ، ومن بقي منهم في القرى احترفوا وسيلتي الدناقلة والجعليين في التكسب فبعضهم عمل في صناعة السفن مع الدناقلة وبعضهم عمل في التجارة المحلية والزراعة مع الجعليين وكثير منهم كانوا عمالاً للواربورات والغابات في الحكم التركي ثم اختفوا في المهدية عن الأنظار لأنهم لم يؤمنوا بها وعادوا بعد فتح الحكم الثنائي [1].

وعندما أنشأت الحكومة البريطانية ميناء كوستي في أول هذا القرن كان للشايقية تجمع كبير هناك للدرجة التي جعلت الحكومة تسند وظيفة عمدة كوستي إلى أحد الشايقية وهو المرحوم (محمد التوم) لأن السكان المحليين مثل الجمع ودغيم وغيرهم قد هربوا من وجه الانكليز وهم ينشؤون المدينة والميناء بدعوى أن الانجليز والمصريين هم أعداء المهدية وقد كانوا هم حماتها وأنصارها فاستفاد الشايقية من هذا الموقف .

قبائل أخرى

ولم يقتصر أمر بناء السفن على هجرة الدناقلة والجعليين والشايقية . فقد نزحت معهم أسر أخرى من سلالات مختلفة

---

(١) والشايقية المقيمون اليوم في منطقة شاف جنوب الدويم هم سلالات السناجق الذين استخدموا لحاميات الترك وحراسة طرق القوافل البرية .

مثل الكنوز الذين كانوا قباطنة وبحارة للسفن الشراعية ثم السفن البخارية وقد أسسوا قرية (الكنوز) جنوب الكوة. وكذلك نزح بعض المواليد والمغاربـــة من أم جر وحسن علوب والشوال والدنيقيلة وأبو هندي والقراصة .

وفي شرق مدينة كوستي الى الشمال قليلاً توجد قرية كبيرة اسمها (زينوبة) وهو اسم ينسب الى سيدة من المواليـــد المصريين اسمهـــا زينوبة المنياوية كانت تتاجر وقد أسست معسكراً لبناء السفن هناك في العهد التركي وسمي المعسكر باسمها ثم صار المعسكر احدى القرى الكبيرة وحولها مشاريع زراعية الآن تحمل نفس الاسم .

وكذلك نزح منذ الحـــكم التركي السابق بعض الاسر من المحس وسكنوا بالقراصة وود شلعي وغيرها فصارت لهم أوطاناً يملكونها داراً وأطياناً وتاريخاً وكان أسلافهم من قباطنـــة السفن وبحارتها .

والجند المسرحون

وفي مدينة كوستي نفسها ومنذ إنشائها في أول هذا القرن سكن بصفـــة استيطان جميع الجنود المسرحين من الجيش المصري بعد الفتح المصري الانجليزي والذين كانت الحكومة الى حين تعتبرهم في احتياطي الجيش ويسمونهم (الرديف) وبالاضافة لكوستي فقـــد سكن آخرون منهم على الشاطىء

الشرقي في حلة عباس والعباسية وخور أجول واشتغلوا بالزراعة واستوطنوا .

والحقيقة التاريخية لا بد أن نسجل بأن كوستي مدينة حديثة نشأت بعد عام ١٩٠٥ م . كمرفأ للوابورات ولم تجد في بادىء الأمر من يسكنها إلا أولئك الجنود وأسرهم . ولما كان وضعها الجغرافي كتقاطع خطوط مواصلات خصوصاً بعد بناء (كوبري) السكة الحديد على النيل الأبيض – كان أولئك الجنود هم عمالها في الانشاء والتعمير واستفادت منهم الحكومة في أعمال الحراسة والبوليس والخفراء وأعمال الغابات والصيد والصحة العامة فكانوا يمثلون جماع اليـــد العاملة حتى برزت كوستي كاحدى كبريات المدن الحديثة ذات المركز الاقتصادي الممتاز لأنها عاصمة الوسط الزراعي للمشاريع الخاصة التي تنتج القطن ونقطة تقاطـــع مواصلات الشمال والجنوب والشرق والغرب [1] .

---

(١) ولم يستفد أبنـــاء الجنود السابقين (الرديف) من تطور كوستي الزراعي والتجاري لأنهم التزموا ناحية الاستخدام كعمال وجنود وغير ذلك .

الفصل الرابع

البيوتات الدينية

مقدمة :

انه لمن العسير بل المستحيل أن نتجاوز – ونحن نسجل تاريخ اقليم عربي واسع – عن ذكر بيوت العلم والدين في هذه المنطقة . بل ان أهمية البيوتات في حقب معينة من التاريخ تمتاز بأهمية كبيرة عن الادارات والرئاسات الأهلية لأسباب ترتبط بتعلق الناس عن طريق الثقة والعقيدة بتلك البيوتات ومن ذلك فهم خاضعون لنفوذها وسائرون بتوجيهها .

ومما لا شك فيه أن بيوت الدين العريقة في الاقليم قد أدت للناس خدمات كبرى عن طريق التعليم للقرآن ولمبادىء الفقه وللتعاليم والآداب الاسلامية وسلوكها بوجه عام .

وقد بلغت الثقة والعقيدة عند الناس ببعض بيوت الدين

أن جعلوها أماكن تحكيم بين الشعب والحكام يستأنفون لها من المظالم التي تقع عليهم فينصفون المظلوم من الظالم حاكماً كان أم من الرعايا .

وكان بعض رجال الدين يتدخلون بين القبائل في المصادمات التي تؤدي الى حروب مدمرة بينهم ويستطيعون في معظم الأحيان أن يكفوا يد الشر ويحقنوا الدماء بما لهم من أثر ومكانة عند الناس وعند رؤساء العشائر أنفسهم .

ولهذا فان حقيقة رسالة البيوتات الدينية لم تقف عند التعليم والتهذيب الديني ولكنها كانت تمتد لنشر السلام وازالة البغضاء والشحناء والاصلاح بين الناس ورد المظالم واعانة اللاجئين والمهاجرين والمستجيرين بالمساجد من ذنب جنود أو مجاعات حلت بديارهم الى غير ذلك من كوارث الأيام ومحنها ولذلك فان وضعهم الاجتماعي كان في القمة بلا نزاع لأن الرجل الذي يقبّل زعماء العشائر كفه لن يساويه في المكانة أحد آخر .

لهذه الأسباب الهامة تاريخياً واجتماعياً رأينا أن نذكر في كثير من الاختصار جانباً من أهم بيوتات الدين التي عرفت في النيل الأبيض لأننا لو أطلقنا للقلم العنان ليخوض في تفاصيل السير الخاصة بهم لاحتاج الأمر الى كتاب خاص ببيوت الدين وحدها .

هـــذا ولن نفرق في هذا الفصل بين شمال النيل الابيض وجنوبه مثل ما فعلنا بتفاصيل السلالات العربية ولكننـــا سنذكر جهد المستطاع تحديد المنطقة التي نتحدث عنها بالنسبة لمواقع مركزي الدويم وكوستي مبتدئين العرض من شمال النيل الأبيض الى جنوبه : —

١ الفكي عبدالله ود أم مريوم — حساني من المغاوير له مسجد للقرآن وطريقة صوفية في عمودية ود العكلي وله أتباع ومريدون عديدون من الحسانية وغيرهم .

٢ — الفكي ادريس محمد حامد (تمساح الترك) ومسجده بقرية الدرادر الواقعة ضمن مشروع الفطيسة وسمي « تمساح الترك » لأنـــه أعلن الثورة المهدية من مقره واصطدم في القراصة بباخرة حكومية في معركة حربية انتصر عليهـــا فأقلعت الباخرة ببحارتهـــا مهزومة ثم انه التقى بجيشه مع سرية حكومية مسلحة بقرية الشاوه شرق الدباسي ودارت معركة انتصر فيها ولهذا سموه (تمساح الترك) لانه صوفي ومحارب في آن واحد .

٣ — الفكي علي ود عويضة من الحسانيـــة بمنطقة القبوب شرق نعيمة وقد أخـــذ الطريق في العهد التركي على الشريف محمد الأمين الهندي.وكان معروفاً بالشجاعة والكرم والاقدام على العويص من المشاكل القومية العامة وله مسيد وأتباع .

٤ ـ الشيخ محمد ود الزاكي وعليه تسمى قريته ود الزاكي الشهيرة وهو شايقي أصلاً ولكن هناك قول بأنـــه ينتمي للكواهلة الحمدية ، وقد زاره الامام المهدي قبل اعلان ثورته طالباً مساندته ولكن يبدو أن الشيخ لم يساند الثورة المهدية وهو من مشايخ الطريقة الختمية المرغنية . [١]

٥ ـ الشيخ حماد الشقيلابي حساني عالم فقـيه كان يدرس الشريعة الاسلامية ومقره جنوب أبو حبيرة شرق الدويم.

٦ ـ الشيخ عوض السيد وهو حساني من تلاميـــذ الشيخ العبيد ود بدر في الطريقة القادرية وله أتباع كثيرون ومقره في قرية (النزهة) جنوب القطينة .

٧ ـ الشيخ عبد الباقي بن الشيخ عوض الجيد بقرية قلعة ود أم اخوان شرق ود العكلي وهو حساني وقد أخذ الطريق على الشيخ عوض الجيد بمنطقة الخوالدة بالجزيرة المروية .

٨ ـ الشيخ عبد الماجـد الاغبش وباسمه سمي (مشروع عبد الماجد الزراعي) وهو أكبر مشايخ الحسنات بمنطقة أبو قوتة

---

(١) لما بعث المهدي بمنشوره للسيد محمد عثمان المرغني في كسلا عام ١٨٨٢ من الابيض لم يذعن له وأرسل منشوراً لكل خلفاء المرغنية ليقاوموا المهدية ويساعدوا حكومـة الترك المسيطرة ونعتقد أن الشيخ ود الزاكي وصله ذلك المنشور .

ومسيده ضخم يأوي إليه مئات الطلاب كل عام .

٩ – الشيخ محمد أحمد كبيش بقريـة (قوز مرعفيب) شرق القطينة وهو من الحسنـات وله مسيد كبير لتدريس القرآن وأتباع عديدون .

١٠ – الشيخ الامام ود قيد ولي وهو أصلاً من المحس وقد أقام مسيده بمنطقة الحمدية جنوب جبل الاوليـاء وقد اشتهر هو وخلفاءه بالكرم وإصلاح الناس وبث شعائر الدين .

١١ – ومن الاولياء القدامى في دار الكواهلة الحمديـــة جنوب جبل الاولياء اثنان من الصالحين هما عبد الرسول وبطران ولا يزال الناس هناك يعززون بهما القسم ويزورون ضرائحهـما في المواسم والمناسبات .

١٢ – الفكي عبدالله الاغبش من الحسنـات وينتمي لقبيلة الغبش الحسنات ومقامه بين القطينة وجبل الاولياء .

١٣ – الفكي عبد الرحيم ود حسن من الحسانية الجمالاب وهو صوفي صالح وله مسجد ومدرسة قرآن .

١٤ – الشيخ موسى أبو قرون من الكواهلة وله قرية باسمه (أبو قرون) في الجنوب الشرقي للدويم وهو من مشايخ القادرية ومن تلاميذ الشيخ العبيد ود بدر .

١٥ – الشيخ الصديق ود بساطي من قبيلة الحسنـات ومقره

غرب القطينة مباشرة وهو مشهور بالورع والصلاح ويعتبر قبره مكاناً لأداء القسم عند العرب بالنسبة للتحقيق في الجرائم لأن الناس لا يقسمون بقبره كذباً خوفاً ورهبة .

١٦ - الشيخ مصطفى الكسيبابي وهو حساني وفقيه في قرية العلقة شمال الترعة الخضراء وله أتباع ومريدون .

١٧ - الشيخ محمد ود جمجان وهو حساني ومقره بمكان اسمه الشاتاوي شمال الدويم أيضاً وله مسجد قرآن وطريقة صوفية متبعة .

١٨ - الشيخ عمر عوض الباري، من الحسنات وهو متصوف وله مسجد عامر في منطقة ود نمر شمال الدويم .

١٩ - الشيخ الخنجر ومقره شمـــال الترعة الخضراء وهو ولي صالح ولا زال مسيده عامراً وطريقته متبعه

٢٠ - الشيخ برير ود الحَسين (بفتح الحاء) وهو صالـــح مشهور في كل السودان ومن سلالات الجعليين الذين استوطنوا النيل الأبيض ومقره قرية شبشه شمال الدويم وقد أخذ عليه الطريقة السمانية كثير من مشايخ النيل الأبيض وغيرهم وقد رفض أن يساعد حملة هكس باشا ضد المهدي بل أرسل معهم خبراء ساهموا في تضليل الحملة عن الطريق الصحيح للأبيض .

٢١ - الشيخ عربي بقرية الطلحه شمال الدويم وهو زعيم

ديني بالطريقة القادرية ومن تلاميذ العركيين .

٢٢ - الشيخ رابح الجري من قبيلة الكرتان بمنطقة عد العود غرب الدويم وله مسيد وأتباع من المنطقة .

٢٣ - الشيخ محمد البر عالم وفقيه في الشريعة الاسلامية وهو من الحسنات ومقره باللعوته غرب الدويم .

٢٤ - الشيخ أبو شيبه من قرية (أبو قمرى) جنوب الدويم وهو صاحب مسيد قرآن ومتبع .

٢٥ - الشيخ عمر وهو ولي صالح بقرية الكريدة بالشاطىء الغربي للكوة في جزيرة أم جر وهو من تلاميذ الشيخ برير ود الحسين ومن المتبوعين في النيل الأبيض وفي شرق كردفان .

٢٦ - الخليفة محمد النور الشيخ علي ومقره شرق الدبامي وشمال شرق الدويم واسم مقامه حلة (الأعوج) وهو متصوف حساني ومتبوع .

٢٧ - الاستاذ محمد شريف نور الدايم بقرية العراديب جنوب الكوة وهو العالم الأديب المتصوف وشيخ الامام المهدي قبل الثورة وهو من أبناء الشيخ الطيب ود البشير في بلدة أم مرح بمديرية الخرطوم وله تاريخ طويل مع الأتراك والمهدية والحكم الثنائي وهو والد الشاعر الشهير المرحوم محمد

سعيد العباسي [1] .

٢٨ – الشيخ البشير ود مضوي رجل صالح ومتصوف وهو مؤسس أكبر مسجد للقرآن بالنيل الأبيض وقريته العليقه في الشمال الغربي لكوستي وهو من قبيلة الأحامده وله أتباع عديدون . وفي المهدية كان أميراً مجاهداً يحمل سيفه بيــــد ومصحفه باليد الأخرى .

---

(١) للاستاذ محمد شريف نور الدائم قصة مشهوره مع الامام المهدي وقد حذر حكومة الترك من دعوته وقبولها لدى النـــاس ولكن الترك لم يسمعوا نصحه وله في ذلك قصائد .

الجزيرة أبا

الجزيرة أبا – كمعلم جغرافي من معالم السودان تعتبر ذات ثروة تاريخية ضخمة لارتباطها بالثورة المهدية التي غيرت وجه التاريخ في السودان .

ونحن هنا إنما نتحدث عنها لارتباطها جغرافياً بالموضوع الذي نحن بصدده كأحد الأماكن الدينية في النيل الابيض ولهذا نذكر من تاريخ الجزيرة أبا مـــا كان متصلاً بموضوعنا تاركين مـــا عدا ذلك للمناسبات التي تختص بالثورة المهدية وتاريخها بتفاصيله وهي كثيرة ومثيرة .

والجزيرة أبا تعتبر أكبر الجزر حجماً على النيل الأبيض كله وهي تمتد من الشمال الشرقي لمدينة كوستي وتنتهي عند قريـة الشوال على بعد نحو الخمسين ميلاً للشمال .

وقـــد كانت الجزيرة أبا في ماضيها السحيق احدى جزر ارتياد قبيلة الشلك ومن شطئانهـــا يصطادون السمك وفرس البحر والتماسيح ولم تكن مأهولة بالمعنى المفهوم حتى العهـــد

التركي عام ١٨٢١ ميلادية لأنهـا ذات غابات كثيفة الأشجار ووعرة المسالك وتأوي بداخلها السباع والحيوانات المفترسة الاخرى .

وفي مستهل العهد التركي دخلها بعض الناس من المتنفعين بالاخشاب وصنع الفحم والمرتزقين مـــن الصيد على النيل ثم نزحت اليها أسرة الامام المهدي قبيل اعلان الثورة وكان والد الامـــام المهدي واخوته وأبناؤه من صناع السفن الشراعية وبناتها باعتبارهم أصلاً من دنقلا من جزيرة الاشراف[1](لبب) وقد عاش الامام المهدي نفسه بداخل الجزيرة أبا مع أسرته التي لجأت اليها لوفرة الاخشاب الصالحة للسفن ولكن المهدي كان منعزلاً عن عمل أسرته بالتصوف والتعبد وقد بنى لنفسه غاراً لهذا الغرض على شاطىء النيل الابيض .

ومن الجزيرة أبا ذهب الامام الى الاستاذ محمد شريف نور الدائم في مقره (بعراديب ود نور الدائم) جنوب الكوة وأخذ عليه الطريقة الصوفية السمانية الطيبية. واختلف المهدي مع أستاذه اختلافـــاً جزرياً أدى الى نزع العهد منـــه وطرده من الطريقة فعاد للجزيرة أبا ثم رأى أن يجدد عهد السمانية في عام ١٨٨٠ م على الشيخ الجليل الشيخ القرشي ود

---

(١) ذكرنا أن كثيراً من أهل دنقلا افراداً وأسراًممن يعملون بصنع المراكب الشراعية قـــد ارتحلوا النيل الابيض وكانت أسره الامام المهدي (والده واخوته) من بين أولئك .

الزين بالحلاوين في الجزيرة ولما اتصل به وجد عنده حظوة كبرى حتى استخلفه على رئاسة الطريقة . ثم عاد الى أبـــا ورتب ذهنه على القيـــام بثورة دينية عامة ضد الحكم التركي وضد مشايخ الطرق ومبتدعي البدع .

وطاف بدعوته سراً لدى كثير من الزعماء والمشايخ في كثير من أنحاء السودان ووجد تشجيعاً واستجابات وترحيباً ولما زار الابيض أبرم عهداً مكتوباً بطريقة سرية مع نخبة من سراة كردفان وكبـــار رجالاتها الوطنيين تعهدوا فيه بمساندته المادية والبشرية من جميع الوجوه ووقع على العهد في الابيض عـــام ١٨٨٠ ميلادية الياس باشا أم برير وحاج خالد العمراني وعبد الصمد ود أبو صفية وعبـــد الرحمن بك بانقا والشيخ محمـــد ود سوار الذهب والسيد المكي الولي [1] . وعرج المهدي على مملكة تقلي بالجبـــال الشرقية (العباسية) فعرض الأمر على الملك آدم أم دبللو فوافقه عليها ووعده بنصرته بماله ورجاله وكان الملك آدم أم دبللو مـــك جبال تقلي على جفوة شديدة مع مدير المديريـــة التركى سعيد باشا ويسميه العرب (جراب الفول) لانه كان سميناً ذا كرش

---

(١) الياس باشا ام برير كان مدير كردفان وعبد الرحمن بك بانقـــا كان وكيل المديرية وعزلهما حاكم الخرطوم التركي لاهتمامهما بالتجارة دون الادارة فعاونا الثورة المهدية انتقامـــاً من الترك ووافق الاعيان الآخرون تأييداً لهذين .

ضخم . وكذلك حصل المهدي على تأييد الشيخ المنا اسماعيل وهو متصوف واسع التبعية في دار الجوامعة وهناك روايــــة تقول بأن أصله من المسعداب من دار الجمع شمال تندلتي .

وعاد المهدي إلى أبا ثم شد منها الرحال في رحلة للجزيرة بنى فيها قبة على قبر الشيخ القرشي في دار الحلاوين وهنـــاك التحق به الخليفة عبد الله وصاحبه من تلك اللحظة إلى أن مات .

وفي الجزيرة اتفق معه محمد ود البصير وكثير من رجالات الحلاوين على مساندة الثورة اذا اشتعلت من جزيرة أبا . ثم عاد إلى أبا بعد أن اختمرت فكرة الثورة الدينية بشعارات أعلن بها عن نفسه انه المهدي المنتظر ـ وبعد ذلك حرر المناشير من جزيرة أبا لكل زعماء العشائر ورجال الدين ثم للحكومة في الخرطوم والخديوي في مصر وملوك العرب في مصر والحجاز وسوريا ولعلماء الازهر وخليفة المسلمين في استامبول بتركيـا وملوك المغرب العربي وأرسل للملك السنوسي منحته بالخلافة الثالثة للمهدي . والتي ردها السنوسي ولم يقبلهـا فظل منصب الخلافة الثالثة شاغراً .

وامتلأت جزيرة أبا بالمتصوفة من أهل العقيدة فيه جاءوا من كل فج بغرض التعبد فلما أعلنت الثورة انقلب رهبان الليل إلى فرسان النهار والليل وصاروا ثواراً محاربين مجاهدين. وانتصر المهدي على أول سرية عسكرية بقيادة (أبو السعود

بك) أرسلها عبد القادر باشا حلمي كحملة تأديبية تهدف إلى أسر المهدي وإحضاره للمحاكمة بالخرطوم أو قتله .

ولكن المهدي أباد تلك السرية في معركة غير متكافئة إذ أنه لا يملك من السلاح حتى السيوف والحراب العدد الكافي فاستعان هو وأنصاره بأخشاب الغابات انتصروا بها على حملة مسلحة بالبنادق والمدافع .

وبعد الانتصار مباشرة رحل المهدي من جزيرة أبا برجاله واتخذ طريقه إلى جبل قدير فالابيض وقد توج جهاده بانتصارات عظيمة دهش لها العالم كله .

وقد ظلت الجزيرة أبا بعد تلك الواقعة التاريخيـة كأكبر معلم ديني تاريخي في السودان ولكن المهدي لم يعد إلى جزيرة أبا بعد تحرير البلاد كلها لانه توفي بعد فتح الخرطوم مباشرة في عام ١٨٨٥ ولانه كما أعلن من قبل قد جعل أم درمان عاصمة حكمه ولم تعد هناك ضرورة للعودة لجزيرة أبا ..

وبعد الفتح المصري الانجليزي لم يعد لجزيرة أبا ذكر خاص ولكن بعد عام ١٩١٤ منحت الحكومة جزيرة أبا للسيد عبد الرحمن المهدي لقطع الاخشاب وإمداد البواخر بالوقود ثم الزراعة وازدهرت أبا اجتماعياً واقتصادياً وفتحت أبوابها لهجرة الانصار من كل صوب وحدب وأنشئت بها المشاريع والحدائق وشيدت بها الدور والقصور والمدارس والمساجد وظلت تستمد طارف

مجدها من تليده كما صارت قبلة روحية لجميع الانصار .

وبالوضع الجديد الذي تغيرت بـــه جزيرة أبا اجتماعياً واقتصادياً توافد عليها أنصار العقيدة المهدية من جميع قبائل السودان التي لم يكن لها من قبل ارتباط بالنيل الابيض وكثير منهم جعل الجزيرة موطناً له ولأسرته بل إن أبناء الجيـــل الحالي ممن تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين عاماً قـــد ولدوا ونشأوا بالجزيرة أبا .

وللجزيرة أبا فوق أهميتها التاريخية الثورية في القرن التاسع عشر أهمية تاريخية واقتصادية أخرى كانت فيها رائدة لم يسبقها عليها مكان وهي زراعة القطن في النيل الأبيض على يد القطاع الخاص حـــين صودق للسيد عبد الرحمن المهدي بزراعته بالآلات الرافعة . ولما نجحت هذه التجربة أنشأت دائرة المهدي العديـــد من المشاريع الأخرى بشرق وغرب النيل الأبيض .

وسكان الجزيرة أبا بلغوا ما يزيد عن الأربعين ألف نسمة وذلك عدا سكان القرى العديدة التي تقع شرق الجزيرة والتي يسمى مجموعها (حلال قفا) وأهلها جميعاً من ضمن سكان الجزيرة أبا الذين يزرعون الذرة في المساحات الشاسعة الواقعة بين محطة جبل بيوت وربك وبين الجبال البيض والشوال بتوغل يمتد الى حدود النيل الأزرق شرقاً .

الفصل الخامس

التطور الاقتصادي والاجتماعي

بعد انشاء خزان جبل الاولياء

قبل الخزان

ذكرنا في أكثر من موضع من هـــذا الكتاب ان معظم قبائل الإقليم الشمالي والجنوبي للنيل الابيض قد أضيرت كثيراً إبان عهد الثورة المهدية وحكمها وبعض تلك القبائل قد فقدت كل ما تملك من ثروة حيوانية بسبب عدم الاستقرار والهجرات الإجبارية لأم درمان في عهد الخليفة وانضواء الرجال تحت ألوية جيش المهدية المنتشر في التخوم والثغور وأمـــاكن الثورات الداخلية والاضطرابات هنا وهناك . ولعل النيل الأبيض كان أشد تأثراً بالأحداث والتضحيـــات لأن الثورة نبعت من أرضه والرواد الأوائل كانوا من أبنائه .

وبعض القبائل فقدت صفوة رجالها وشبابهـــا وتشردت نساؤها ومات أطفالها من الأمراض والأوبئة والمجاعـــات

وعناء السفر وفقدان الحنان والعطف والتربية . لأن الثورة لم تقتصر على حماية استقلال السودان بحدوده بل حاولت غزو أثيوبيا ومصر من غير استعداد لذلك بالعتـــاد والسلاح والتمويل .

ولما انهارت المهدية في سبتمبر عام ١٨٩٨ ميلادية وانتظمت حكومة الحكم الثنائي وتوافدت البقية الباقية من القبائل الى أقاليمها حدث استقرار واطمئنان جعلهم يبدءون الحيـــاة من جديد .

والنيل الابيض كإقليم واسع ومترامي الأطراف قد خصه الله بكثير من أسباب الرخاء في الشواطىء والجزر وفي أراضيه الخصبة المنبسطة غرباً وشرقاً حتى كردفان والجـــزيرة ومن مراعيه الممرعة والغنية بالعلف والكلأ . وكان الاقليم بجزئيه الشمالي والجنوبي يعتبر من أقاليم إنتاج الذرة بكل أنواعـــه وتصديره لكافة أنحاء السودان ولتصدير الكثير جـــداً من الماشية غنماً وأبقاراً من دار الحسانيـــة والحسنّات ومن دار البقارة .

وعاش الاقليم كله من مستهل هذا القرن في سعادة رخائه الطبيعي بعد أن استقر أهله [1] ولموا شملهـــم بعد الشتات

(١) كان النيل الابيض إبان الحكم التركي موزعاً بمستوى المديرية على كردفان بالنسبة للجزء الأكبر منه وعلى مديرية فشوده (أعالي النيل) بالنسبة للجزء الجنوبي منه .

وأنشأت الحكومة مديرية النيل الابيض كرئاسة لادارة الاقليم وجعلت عاصمتها مدينة الدويم لأنها المركز الوسط لتجمع القبائل كما أن كوستي رغم تفوقها الآن على الدويم لم يكن لها وجود حقيقي في أول هذا القرن وخاصة قبل تشييد جسر السكة الحديد فوق النيل الابيض « كوستي » .

وقد كانت الدويم مركز مواصلات بين الخرطوم والجزيرة وبين مديريتي كردفان ودارفور قبل مد الخط الحديدي بكردفان عام ١٩١٠ . وكانت طرق القوافل التجارية البرية متعددة بعضها عن طريق الشقيق والهلبة شمال الدويم ومنها الى بارا فالابيض وبعضها عن طريق شات جنوب الدويم قليلاً ثم الى التيارة فالابيض وهذا هو الطريق التاريخي العريق ليس بين كردفان والنيل فقط بل أيضاً لتجارة دارفور وبحر الغزال مع وسط السودان .

ومع انشاء المديرية أنشئت مراكز في كل من القطينة والكوة وكوستي والجبلين وتندلتي ولكنها جميعاً ألغيت في نهاية عقد الثلاثينات بما فيها المديرية ولم يبق للرئاسة المركزية إلا مركزي الدويم وكوستي. أما الرئاسة على مستوى المديرية فقد نقلت الى واد مدني حين ألحق النيل الابيض كله بمديرية النيل الأزرق .

قصة الخزان :

ظلت مصر بعد تعلية خزان أسوان الاولى وبعد الحرب العالمية الاولى التي أعقبتها الثورة المصرية مطالبة بالاستقلال عام ١٩١٩ تطالب وتفاوض الادارة الانجليزية المسؤولة عن حـــكم السودان لتوافق على تشييد خزان آخر لرفع منسوب النيل في مصر لتتمكن من التوسع الزراعي .. وظل الانجليز في بريطانيا يرفضون ذلك المطلب كلما أثير بايعاز من ادارتهم في السودان ولكن الرفض كان يبنى سياسياً على أن السودانيين لا يريدون لمصر مرافق تنشأ بالسودان بعد الحروب المدمرة التي حدثت في المهدية والتي فقد فيها المصريون عشرات الآلاف من الأرواح في معارك أبـــا والشلالي باشا بجبل قدير وفتح الابيض والخرطوم وسنار وسواكن وسنكات وطوكر وبربر وكسلا بالاضافة لابادة العديد من الحاميات الفرعية في كل أنحاء السودان .

وكان الرفض يبنى اقتصادياً على الدفاع عن أراضي سكان النيل الأبيض وجزائرهم وقراهم التي ستغرق وتتأثر بارتفـــاع الماء في النيل الأبيض نتيجة لعمليات الخزان .

وأقامت مصر التعلية الثانية لخزان أسوان وكانت فائدتها من حيث توفير الماء المطلوب محدودة وضعيفة ووضح فنياً أن خزان أسوان لا يحتمل تعلية ضخمة لحجز مليارات المـــاء المطلوبة فلم يبق غير الالحاح في تشييد خزان بالسودان وعلى

النيل الابيض الذي درسته وزارة الري المصري دراسة فنية دقيقة عرفت بها كل شبر منه ابتداء من مناطق السدود في أعالي النيل حتى ملتقى النيلين وكان ولا يزال لمصر تفتيش كامل في (ملكال) مجهز بجميع آلات تعميق النهر وقطع السدود وتفتيش آخر كان بجبل الاولياء مع ترسانة كاملة الاعداد في (شجرة غردون) ومكتب لرئاسة كل أعمال الري في السودان مقره الخرطوم .

ولهذا فان اختيار مصر لبناء الخزان في جبل الاولياء كان مستنداً على دراسات هندسية فنية مكتملة وكانت كل الرسومات والتخطيط وتكاليف الانشاء والمعدات الآلية الفنية جاهزة لدى الري المصري في انتظار الاتفاقية الانجليزية المصرية على التنفيذ .

وبالرغم من أن السودانيين لم يكن لهم كيان قومي آنذاك وبالتالي لم يكن لهم رأي في الأمر إلا انهم كانوا يرون بوضوح انفراد شريك بحكم البلاد واستبداده به دون الشريك الآخر خلافاً لما نصت عليه معاهدة مصر – بريطانيا لعام ١٨٩٩ والتي وقعها عن الدولتين بطرس باشا غالي ولورد كرومر المندوب السامي البريطاني لمصر والسودان .

ومن البديهي أن مصر كانت خلال العشرينيات من هذا القرن تحت حكم الملك فؤاد الأول الذي تسنم العرش على أسنة الحراب البريطانية والذي باع كل الحق المصري والسوداني في وادي النيل بثمن بخس هو تحويل العرش من لقب سلطان

يتبع بطريقة أو أخرى لسلطان آل عثمان بتركيا الى مملكة مصرية استوى هو على عرشها بعد نهايـــة الحرب العظمى الماضية ، وبعد وفاة حسين كامل الذي كان أول وآخر من سمي بالسلطان بعد ان عزل الانجليز عباس حلمي الثامن الذي كان آخر من يسمى بالخديوي بتهمة انه حاول ضم مصر الى محور ألمانيا ــ تركيا ضد الحلفاء عام ١٩١٤ .

وزاد إلحاح مصر على بناء خزان جبل الأولياء عندمـــا شيد الانجليز خزان سنار لتطوير الجزيرة وأراضيها بغرض استغلال رؤوس المال البريطانية من القطاع الخاص التي منحت كل امتيازات التملك الاقتصادي لمشروع الجزيرة . وعندما قتل سيرلي ستاك باشا حاكم السودان العام في شارع القصر العيني بالقاهرة في نوفمبر ١٩٢٤ ، كان حق التوسع في مشروع الجزيرة واستخدام مياه النيل من غير حدود أحـــد شروط بريطانيا المريرة كعقاب لمصر على اغتيال استاك باشا . ولعل هذا الشرط بالاضافة الى شرط طرد الجيش المصري كله من السودان في أربع وعشرين ساعة كانا السبب المباشر لاستقالة سعد زغلول وإلغاء البرلمان وإنهاء حكم العناصر الوطنية التي فجرت ثورة١٩١٩ وطالبت الانجليز باستقلال مصر والسودان ــ ليحل محلهم أمثـــال أحمد زيور باشا الذي كان مثـــل الملك فؤاد مطية ذلولاً لبريطانيا نفذ من غير تردد كل طلبات اللورد اللنبي مندوب بريطانيا السامي ليكون على رأس الوزارة

التي يسيرها قصر عابدين نيابة عن قصر الدوبارة [1] .

وما أضيرت به مصر على يد الملك فؤاد وأعوانه في عام ١٩٢٤ ابتداء من دفع نصف مليون جنيه دية لزوجة استاك باشا واطلاق يد الانجليز في الجزيرة ومياه النيل الأزرق الى الاساءة التاريخية الصارخة بتجريد الجيش المصري من سلاحه وطرده من السودان في أربع وعشرين ساعة .. ما أضيرت به مصر بمثل ما حدث قد أضير به السودان والسودانيون الذين هتفوا بحياة مصر والملك فؤاد وسقوط الانجليز والذين سقطوا في معركة كبري النيل الأزرق وأعدموا بالرصاص في ثكنات الجيش البريطاني والذين زجوا في كل سجون السودان ابتداء من علي عبد اللطيف رئيس اللواء الأبيض وزملائه الى طلبة المدرسة الحربية السودانية .

وفي عام ١٩٣١ ظهرت الازمة المالية العالمية التي تأثر بها كل قطر على ظهر الارض . وفي السودان هبط سعر القطن الذي تعتمد عليه الحكومة في الميزانية الى الحضيض بل فقد التسويق كلية واهتز كيـــان الحكومة الاقتصادي فجمدت المنشآت والمشاريع واستقدمت مـــن بريطانيا الخبير المالي اليهودي المعروف (مستر فاس) وسلمته زمــام الامر لينقذ

---

(١) قصر عابدين هو مقـــر الملوك المصريين الرسمي في العهود الغابرة — وقصر الدوبارة هو مقر العميد أو المندوب البريطاني السامي وهو الآن السفارة البريطانية .

السفينة الغارقة فأجرى تخفيضاً مريعاً في عدد الموظفين من سودانيين وأجانب وقام بسن قانون يخفض بموجبه كل مرتب في الدولة بنسبة ٧٫٥ ٪ .

ومع ذلك ظلت السفينة تتأرجح مشرفة على الغرق وخطر على بال الحكومة تحت ضغط الازمة المالية ان تحني الرأس للعاصفة ففتحت باب المفاوضات مع مصر من جديد بالموافقة المبدئية على تشييد خزان جبل الاولياء . وجرت المفاوضات في لندن وتولاها الداهية المصري المعروف حافظ عفيفي باشا الذي عرف من مجرى الاحوال ان الادارة البريطانية في السودان خضعت للامر الواقع بضغط الازمة المالية وأنها تعاني موقفاً شاذاً من التدهور المالي فعرض على بريطانيا ثلاثة أرباع مليون جنيه فقط كقيمة لتعويضات الاهالي عن خسائر الخزان لديارهم ولم يتزحزح عن عرضه قيد أنملة وقبلت بريطانيا وقبلت الادارة البريطانية هنا وتولت الوصاية عن أهالي النيل الابيض في توزيع واستثمار مال التعويضات الذي تشكلت له لجنة خاصة من رئيس بريطاني مع عضوية جمع من الفنيين المختصين بالمساحة والري والصحة العامة وتسجيلات الاراضي ومحاكم شرعية لتقسيم المواريث وغيرهم . وقد كانت قيمة النقد في ذلك العهد ١٩٣١ – ١٩٤٠ ميلادية عالية جداً بالنسبة لقيمة أي بضاعة بسبب الازمة العالمية والواقع ان مبلغ التعويضات الذي كان ٧٥٠ الف جنيه يعتبر بحساب قيمة الجنية الشرائية اليوم أكثر

من سبعة ملايين جنيه على الاقل .

تعويضات القرى والتطور العمراني .

وبدأت لجنة تعويضات جبل الاولياء تقديراتهـا بالاراضي الزراعية والجزر وكان التعويض بوحدة الفدان يختلف باختلاف جودة الاراضي المعروفة من تقارير ضرائب العشور لزراعـة الذرة بمركزي الدويم وكوستي .

والاراضي والجزر التي دفعت عنها تعويضات باقليم الدويم تعتبر أضعاف تلك التي قدرت لمركز كوستي لسبب واضح وهو ان الاقليم الاقرب لموقع الخزان يتأثر بشكل مضاعف مـن ارتفاع الماء الذي يغمر الاراضي والجزر .

وقد كانت قيمة التعويض الذي لم يزد عن الجنيه والاثنين للفدان غاية في الغبن والظلم للاهالي جميعاً وكذلك كان تعويض المنازل في القرى المتأثرة بارتفاع المياه ولكن المواطنين وضعوا أمام الامر الواقع لان الخزان قد شيد فعلا والاراضي والجزر قد غمرها الماء .

ومع أن الانجليز واجهوا بعض الاحتجاجـات من بعض الناس بل وجدوا نوعاً من الغضب الايجابي والمقاومة العملية والشكاوى المريرة للحاكم العام من مواطني القطينة – معذلك فإن مسيرة التعويضات على الأسس المجحفة الظالمة قد سارت في طريقها غير عابئة بأصوات الاحتجاج والتذمر وتم كل شيء كما

خططت له لجنة تعويضات خزان جبل الاولياء .

ولعل الفائدة الواضحة التي شعر الناس في قرى النيل الابيض بقيمتها فيما بعد هي أن القرى التي غمرها المـــاء بعد استعمال الخزان لاغراضه قد بنيت على تخطيط حديث صحي بعد أن كانت عبارة عن منـــازل متراكمة فوق بعضها وملتصقة ومعظمها كان بالقش والقصب وبالاضافة للتخطيط الحديث فإن ادارة التعويضات تكفلت ببناء المرافق العامة بمواد ثابتـــة وتصميمات جيدة .

وتلك المرافق هي المدارس والشفخانات والمساجد ومراكز البوليس والغابات والصحة العامة والأسواق العامة وغيرها .

ومن ناحية المواطنين أنفسهم فإنهم قد وجدوا الفرصـــة لتشييد منازل على مستويات جيدة وكافية وصحية وبذلك حدث انقلاب واضح في التطور العمراني بالنسبة للقرى التي نقلت من أماكنها السابقة المنخفضة الى الأمـــاكن الأخرى المرتفعة والتي تتمتع بلياقة المواقع الصحية .

والذين يعرفون القطينة القديمة (العمارة) وهي في أحضان الشاطىء قبل إنشاء الخزان ثم رأوها الآن بعد أن رحلت الى مكان مرتفع يدركون الفرق الشاسع في التطور العمراني وهذا ينطبق على جميع القرى الـــتي تأثرت بالخزان وانتقلت من أماكنها . وقد أحدث هذا غيرة في القرى التي لم تتأثر بالخزان

وظلت كما هي فما فتىء أهلهـــا يشكون ويطالبون ليجدوا فرصة تحويلها لعمرانها من جديد .

وكوستي المدينة الحديثة المخططة ذات الميادين الرحبـــة تعتبر نتيجة عمرانية جيدة بالنسبة لحالتها السابقة قبل عام ١٩٤٠ عندما كانَ معظم مبانيها من القش والقصب وليست بها شوارع رحبة وميادين . ويعتبر سوقها اليوم أحسن أسواق السودان من حيث التخطيط والميادين .

ومن حسنات التعويض واعـــادة تخطيط القرى مكتملة بمرافقها العامة كما ذكرنا حدوث تطورات اجتماعية هامة في حياة قطاع كبير جداً من القبائل المحلية لانهم بدأوا نوعاً من حياة الاستقرار المعيشي بدلاً عن حياة التنقل الموسمي الذي كان أسلوب حياة معظم الحسانية والحسَنّات وبقية من يعيشون على ضفاف النيل قبل الخزان بحثاً عن سعادة نعمهم ومواشيهم على حساب سعادة أسرهم وتربية أطفالهم .

وقد كان حالهم رتيباً يتلخص في رحلة الخريف بعيداً عن النيل حيث يتوفر الماء والمرعى ومع طلائع الشتاء تعود جموعهم أدراجها الى شواطىء النيل حيث يقيمون الشتاء كله والصيف كاملاً وإذا ما بدأت طلائـــع الخريف عادوا الى الرحلة وهكذا دواليك – وهـــذا النوع الرتيب من الحياة الذي بدأه أسلافهم منذ أن وطئت أرجلهم مناطق النيـــل الأبيض لم يتغير أو يتبدل إلا خلال الاربعينيات من هذا القرن

وبعد أن غمر النيل بفعل الخزان الجزر والشواطيء التي كانوا يزرعونها ذرة من نوع جيـــد معروف في ذلك العهد واسمه (الصفراء) .

ومن التحولات الاجتماعية التي أحدثها الاستقرار في القرى الجديدة ان المتخلفين من العرب الرحـــل سرعان ما لحقوا بمستويات القرى الثابتة القديمة مثل القطينة والقراصة والشوال والكوه وغيرها في مدارج الوعي والادراك مع الفارق الزمني الطويل الذي استفاد منه أهل القرى الثابتة بتعلـــيم أبنائهم وبناتهم وعملهم في التجارة والمهن الصناعية الأخرى عبر فترة الحكم الثنائي من أول هذا القرن .

المشاريع الزراعية الحكومية للمعايش

ولعل أكبر نصيب من مال التعويضات لخزان جبـــل الأولياء قد أنفق في إنشاء عدد من المشاريع الزراعية بالاقليم الشمالي للنيل الأبيض كبديل معيشي للأراضي التي فقدها الناس تحت طوفان ماء الخزان.وقد عينت لجنة لادارة تلك المشاريع من موظفين اداريين ومفتشين انتدبوا من أجهزة الحكومـــة المركزية كما سنت قوانين ولوائح خاصة ركزت بوجه عام على قصر الاستفادة من الانتاج الزراعي على المواطنين الذين أضيرت أراضيهم وأوطانهـم من الخزان حتى اذا ما فاضت الارض عن حاجتهم فتحت الابواب للآخرين من أبناء النيل الابيض.

ومن القوانين التي سنت لتخدم هدف التحول الاجتماعي من مجموعات رعاة رحل الى مزارعين مستقرين – الاصرار الحكومي على عدم استخدام الاجراء الوافدين من أبناء غرب السودان في (الحواشات) وضرورة سكن الاسرة كلها في مزرعتها لتواجه حاجة الخدمة اللازمة لها ولكي يتأقلم الناس تدريجياً مع العمل الزراعي مع الاحتفاظ بقدر معقول من البهائم التي يمكن للزراعة أن تستوعبها بغير حاجة الى طلب المرعى خارج المناطق الزراعية .

ومن أكبر المشاريع التي أنشئت من مال التعويض مشروع عبدالماجد الزراعي الذي يقع في الشمال الشرقي من القطينة وهو المشروع الوحيد الذي يعمل لإعاشة أهالي النيل الأبيض من قبيلة الحسنات وغيرهم ولكنه يستمد ماء الري من النيل الأزرق عن طريق قناة تمتد من ترعة الجزيرة الرئيسية في (أبو عشر) وتسير غرباً حتى تصل مشروع عبدالماجد بطول ثلاثين كيلو متراً .

هذا وقد بدأ مشروع عبدالماجد أول دورة زراعية للقطن في عام ١٩٣٩ – ١٩٤٠ وكان جيد الانتاج والادارة مما جعل الحكومة تسرع باضافة امتداد آخر تعقبه امتدادات من الارض متوالية جعلت منه مشروعاً ضخماً من أهم مشاريع الانتاج القومي السوداني للقطن الممتاز .

وبما أن مشروع عبدالماجد قد استوعب معظم مزارعيه

من الحسنات والكواهلة دون بقية القبائل . فقد أنشئت على ضفاف النيل الابيض مشاريع معايش أخرى كبيرة تعمل بالآلات الرافعة بدأت دورتها الاولى في نفس عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ وهي مشاريع المشابة والقطينة للحسانية بالضفة الشرقية شمال الدويم ثم مشروع أم جر في عام ١٩٤١ وهو جنوب الدويم لاعاشة بعض الحسنات والجعافرة وقرى الكريدة وغيرها من السكان الذين تقع أوطانهم في رحاب المشروع الزراعي على امتداد خور (أبو قصبة) ثم أنشئت بعد ذلك مشاريع ود نمر وشبشة وغيرها على الضفة الغربية وسارت كل هذه المشاريع على نفس القوانين واللوائح التي وضعت لمشروع عبدالماجد وسميت ادارتها (مشاريع النيل الابيض للمعايش) .

وكان من الطبيعي أن تغيّر الحياة الزراعية كثيراً من أساليب البداوة والرعي والترحل برحلة الخريف والشتاء والصيف كما وصفناها الى حياة استقرار وحساب للدخل السنوي للأسرة .

كما كان من الطبيعي أن يتعلم الناس تبعاً لذلك كثيراً من الاوضاع الاجتماعية التي لم يعرفها العرب الرحل من قبل مثل التقيد بمواعيد الزراعة والحش والشلخ والقلع والحصاد واللقيط والوزن والمكتب والحسابات والآفات الزراعية والوقاية منها الى غير ذلك من الخطوات نحو الحياة المدنية وما يتبعها من

مأوى مناسب وتغيير في نظام الأكل والوجبات وتربية الأطفال وإرسالهم للتعلم ومعالجة مرضاهم بالشفخانات أو المستشفيات مما لم يكن يعرفه العرب الرحل من قبل .

ويلاحظ من توزيع مشاريع النيل الابيض للمعايش التي أنشئت من ميزانية تعويضات الخزان انها لم تمتد للاقليم الجنوبي (اقليم البقارة[1]) . ولذلك سببان أولهما أن طغيان ارتفاع المياه بسبب الخزان قد غمر الاراضي الشمالية ولم يؤثر كثيراً على الاراضي الجنوبية الشاسعة ولان معظم قبائل الاقليم الجنوبي هم في الاصل رعـــاة بقر يسكنون بعيداً عن الشاطىء حيث يتوفر المرعى .

وثانيهما أن الاقليم الجنوبي قد أنشئت به مشاريع خصوصية كبرى مثل مشاريع المعايش، قبل انشاء الخزان نفسه ومعظمها كان ملكاً لدائرة المهدي كما سيأتى عنـــد ذكر المشاريع الخصوصية .

المشاريع الزراعية الخصوصية

ذكرنا من قبل أن الجزيرة أبا هي أول مكان زرع به القطن من القطاع الخاص حين لم يبدأ العمل في تشييد خزان جبل

---

(١) كان العرب البقارة يكرهون الزراعة ويحبون الترحل مع حيواناتهم ولكنهم لمـــا رأوا الأعراب يستثمرون أراضيهم ويثرون منها اتجهوا نحو المشاريع الزراعية .

الأوليـاء . وعندما نجح المشروع وعاد بربح وفير على دائرة المهدي امتد نشاطهــا لانشاء مشاريع كبيرة أخرى بنفس الاقليم الجنوبي للنيل الأبيض مثــل الشوال والملاحة وشرق الجاسر والرياض على الشاطىء الشرقي ومشاريع قلي والفقيراب والطويلة وغير ذلك على الشاطىء الغربي وامتد نشاط الدائرة الزراعي الى الاقليم الشمالي بمركــز الدويم فأنشأت مشروع الجمالاب الزراعي ومشاريع أخرى استخرجت رخصها بأسماء أفراد محليين ولكن تمويلهــا وتسويق حصادها كان بيد دائرة المهدي .

ونشأت في النيل الأبيض شماله وجنوبه منذ الاربعينيات مئــات المشاريع الخاصة بالشرق والغرب منحت لأفراد وشركات محدودة وشركات مساهمة . وظهرت في عالم المـال شركات أجنبية تمويلية كبرى مدت تلك المشاريع بالمــال اللازم لتأسيسها ممــا سهل مهمة العمل الزراعي حتى للذين لا يملكون أي قدر من رؤوس الأموال .

وازدهر النيل الأبيض كله منذ الأربعينيات وتطور اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً لدرجة ملحوظة في مظاهر العمران في المدن والقرى والمباني والمرافق العامــة الملحقة بالمشاريع الزراعية خصوصية كانت أم حكومية . وارتفع تبعاً لذلك مستوى المعيشة العام في كل مكان وامتلأ اقليم النيل الأبيض الذي كان من قبل لا يضم إلا أهله ــ امتلأ بالأغراب من جميع طبقات

المواطنين العاملين في حقل الزراعة والهندسة والتجارة والتعليم والصحة العامة واتسعت رقعة التجارة وتعددت وسائل المواصلات التي كانت من أكبر مشاكل هذا الاقليم حينما لم تكن هناك مواصلات داخلية بين كوستي والخرطوم غير البواخر والسفن الشراعية البدائية . أما السكة الحديد فانها تمر على النيل الابيض بعرضه ولا تخدم إلا حيزاً ضيقاً منه .

التعليم

ومن المعالم البارزة في النيل الابيض وجود معهد بخت الرضا الذي يقوم بإعداد المدرسين للمدارس الوسطى . وقد أنشىء المعهد في مستهل الثلاثينيات وكان يعمل وحده لإمداد البلاد بالمدرسين ويقوم بوضع المناهج التي تدرس لفترة طويلة قبل أن تنشأ المعاهد الاخرى في الدلنج وشندي وغيرها .

وقد كان ولا يزال وجود بخت الرضا بالدويم عاملاً كبيراً من عوامل ازدهار مدينة الدويم ثقافياً واقتصادياً .

وقد اختيرت منطقة النيل الابيض أيضاً لتجارب انشاء المدارس الريفية الوسطى منذ الثلاثينيات وقد أنشئت أول مدرسة ريفية في مدينة الدويم وخرجت أفواجاً كبيرة من أبناء الريف السوداني من كل المديريات وأعدتهم بطريقة عملية زراعية وأكاديمية لمواجهة الحياة في مناطقهم

وقد هيأ وجود هذه المعاهد بالنيل الابيض فرصة كبيرة

لوجود عدد كبير من رجـــال التعليم البارزين في السودان
والشبان المرموقين في مجال التربية والتأليف من المعلمين كما هيأ
الاقليم ايضاً لتقبل وفود عالمية من خارج السودان من المهتمين
بالشئون الثقافية والتعليمية .

أما التعليم العادي التقليدي في المدن والقرى فانه بالنسبة
للنيل الابيض قد سار مسيرته العادية من التطور في التعلـــيم
الحكومي والاهلي للبنين والبنات .

الصحة العامة

كان إقليم النيل الابيض شماله وجنوبه معروفـاً بالامراض
المتوطنة مثل الملاريا والبلهارسيا كما كان معروفاً قبـــل إنشاء
الخزان بضآلة وسائل الوقاية والعلاج للامراض المتوطنة المعدية
والاوبئة الطارئة والأمراض العادية غير المعدية .

وعندما أنشىء الخزان اعتمدت لجنة التعويضات أموالاً
لمواجهة الازدياد المحتمل لامراض الملاريا والبلهارسيا التي سيسببها
ارتفاع المياه وإنشاء المشاريع الزراعيـــة وازدياد السكان من
العمال الزراعيين وعمـــال العمران والوافدين من الذين يجذبهم
التطور الاقتصادي للاقليم .

ومن تلك الاعتمادات أنشئت وحدات كاملة للصحة الوقائية
جعلت رئاستها أول الأمر في كوستي ولهـــا حق الاشراف
من منطقة الخزان في جبل الاولياء شمالاً إلى الحدود بينها وبين

أعالي النيل جنوباً وعين العمال المراقبون والملاحظون من القرى الكبرى والمشاريع الزراعية وأنشئت لهم مكاتب ومواصلات حيوانية ونهرية وبرية (عربات) على طول ذلك الامتداد . ثم فصل الاقليم الجنوبي عن الشمالي وأنشئت مكاتب للصحة الوقائية بالدويم لازدياد المشاريع وصعوبة الاشراف الصحي من كوستي على امتداد طويل شرق وغرب النيل .

ومن الناحية العلاجية كان للنيل الابيض مستشفيان صغيران في كوستي والدويم ولكن اعتمادات التعويض شيدت لكوستي مستشفى كبيراً على الطراز الحديث ووسعت من مرافق مستشفى الدويم . وكانت المراكز الصحية والشفخانات ضئيلة وقليلة فزاد عددها حتى شمل كل قرية تقريباً وشيد معظمها على المواصفات الحديثة وأسست بأدوات ومعدات وآلات وأدوية لم تكن بها من قبل .

ومع ذلك فان المد الحضاري في النيل الابيض كله كان أسرع خطى من التحسينات التي نشأت من مرافق الصحة وقاية وعلاجا وظل المواطنون حتى الآن وبرغم قيام مستشفيات أخرى في القرى يشعرون بقصور الخدمات الطبية والصحية قصوراً واضحاً قد تحول دون علاجه حالة البلاد المالية إلى حين .

مراجع البحث

١ – تاريخ العرب في السودان للسير هارولد ماكايكل

٢ – تاريخ جنوب السودان للمستر رتشارد جراي

٣ – كتاب مصر في السودان للمستر رتشاد هل

٤ - تقارير مستر ريد مدير النيل الابيض الاسبق عن قبائل النيل الابيض .

٥ – تاريخ السودان لنعوم شقير

٦ – أجزاء متعددة من مجلة (السودان في مدونات ومذكرات) الدورية التي تصدر بالانجليزية كل ثلاثة شهور

٧ – تاريخ منقول شفويا من ثقات الرواة بالنيل الابيض من رجالات كانت لهم أدوار حية فيما دوناه بالكتاب

الفهرس

الموضوع	الصفحة

٢ مليم